جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا
قسم اللغة العربية

شعر الزهد في العصر الأموي

إعداد الطالب
أحمد راضي رواجبة

إشراف الدكتور
خليل عودة

نوقشت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في كلية الآداب بجامعة النجاح الوطنية عام ٢٠٠١م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : {{{ ومن يتّقِ اللّهَ يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب }}}

صدق الله العظيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

إلى والديّ

عرفانًا منّي بحقّ الأمومة والأبوّة وتكريمًا لهما واعتزازًا بهما

إلى كلّ من وقف إلى جانبي

أهدي ثمرة هذا البحث

أحمد رواجبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعددت موضوعات الشعر في العصر الأموي ، وتنوعت تنوعاً كبيراً بعد مجيء الإسلام ، فكان أن ظهر موضوعات جديدة لم تزدهر من قبل ، كما أصاب الخور والضعف والفتور موضوعات أخرى ، وذلك تناسباً مع الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية الجديدة .

وكان شعر الزهد في العصر الأموي من الموضوعات التي ظهرت وكان لها حضورها على ساحة الأدب ، بعد أن كانت تركد خلف الستار ، وغدت الدعوة للزهد والعبادة والنسك غرضاً يتردد على ألسنة الشعراء ، فتناثرت في دواوينهم الأبيات والمقطوعات التي تجسد الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة تجسيداً أدبياً جديداً ، وتدعو من خلاله إلى ما تدعو إليه تلك الآيات والأحاديث .

وشعر الزهد في هذه الحقبة لم يحظ بما حظي به غيره من أغراض الشعر من الدراسة والاهتمام ، فلم يتناول الدارسون ، فيما أعرف ، هذا الغرض تناولا واسعاً ، ولم يخصص لهذا العصر دراسة مستقلة تجعل شعر الزهد في المكان الذي يستحق ، وقد تناوله بعضهم نتفاً متناثره هنا وهناك .

ولعل من أهم هذه الدراسات كتاب الدكتور عبد الحكيم حسان (التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري) وكتاب الدكتور علي نجيب عطوي (شعر الزهد في القرنين الثاني والثالث للهجرة) ، إلاّ أنّ هذه الدراسات تناولت شعر الزهد تناولاً عاماً ، فكانت دراسة الدكتور عبد الحكيم حسان ، دراسة واسعة لم يحظ العصر الأموي منها إلا بالنزر اليسير ، فلم يتعرض لكثير من الشعراء الذين نظموا في الزهد أو تخصصوا به ، ولم يتناول موضوعاته تناولا فنياً ، وكذلك بالنسبة للدكتور نجيب عطوي ، فقد كانت دراسته تركز على العصر العباسي ، ولم يحظ العصر الأموي في نهايته إلاّ بالقليل من الدراسة والاهتمام .

٥٤٣٨٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالإضافة لما سبق فإنّه يوجد بعض الصفحات المتناثرة في المؤلفات التي أشار مؤلفوهـا إلى الزهد وأشعاره ، وكان تناولهم له تناولاً لا تخصيص فيه ، وأبرز هذه المؤلفات (البيـان والتبين) للجاحظ ، وكتاب (عيون الأخبار) لابن قتيـبة ؛ لذلك وجدت أن موضـوع شعر الزهد في العصر الأموي يحتاج إلى دراسة قائمة بذاتها ، فقمْتُ أتـتبع هذا الموضوع من بين موضوعات الشعر في هذا العصر ، والذي رأيت فيه تعبيراً عن التربية الروحية التي خلّفـها الإسلام في نفوس المسلمين ، فوجدت نفسي أسير نحو شعر العبّاد والنّساك المليء بالمتـاعب والمصاعب ، وخاصة أن الدراسات التي تسعف الدارسين في هذا الميدان قليلة ، عـدا عـن الأشعار المتناثرة في بطون أمهات الكتب والدواوين التي تحتاج إلى جهد كبير في جمعها .

وتأتي أهمية الدراسة في كونها تكشف جانباً مهماً وغرضاً شعرياً كان له حضـوره في أشعار هذا العصر ، وهو الغرض الذي طالما أهمله الدارسون وأخروه بين أغراض عصـره ، ويحدوني الأمل إلى اكتشاف بعض المجهول حول هذا الغرض الشعري ، وجمع شتاته المتنـاثرة هنا وهناك .

وتكمن إشكالية البحث في محاولة تسليط الضوء على هذا الموضوع لإبرازه كفن شعري وغرض تربوي ، كان له كيانه في العصر الأموي ، ووضعه في المكان الذي يسـتحقه بـين أغراض عصره .

وقد استقام البحث عندي في ثلاثة فصول ، فقد بدأت الفصل الأول معرفاً بالزهد لغـة واصطلاحاً ، ، ثم تحدثت عن شعر الزهد في العصر الجاهلي ، ثم أردفت ذلك بالحديث عـن شعر الزهد في عصر صدر الإسلام مبيناً أشهرأعلامة .

وفي الفصل الثاني تحدثت عن أهم عوامل نشوء وتطور هذا الغرض الشعري ، ثم تطرقـت لأشهر الموضوعات التيتعرض إليها شعراء الزهد ، ثم بينت أشهر شعراء الزهد في هذه الحقبة موضحاً منهجهم في الزهد .

وجعلت الفصل الثالث دراسة فنية ، خصصته للحديث عن اللغة ، ومدى التأثروالتأثير في شعر الزهد من قبل السابقين واللاحقين ، ثم تحدثت عن معاني القرآن الكريم في شعر الزهد في العصر الأموي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخيرًا ، فإنّه لا يسعني إلا أن أتقدم بالعرفان لأستاذي الدكتور خليل عودة الذي كان دائماً معي يسدد خطاي ، ويثبت عزيمتي ، ويصوب أخطائي ، ويرشدني سواء السبيل ، فأتقدم إليه بالشكر الجزيل وعميق التقدير .

والحمد لله أولاً وأخيراً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

١ ــ الزهد لغة واصطلاحا ٥ــ٧.
٢ ــ الشعر الديني في العصر الجاهلي ٧ــ١٩.
٣ ــ الزهد في عصر صدر الإسلام ٢٠ــ٣٢.
٤ – أشهر من نظم في الزهد في عصر صدر الإسلام ٣٣ــ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهد لغةً واصطلاحًا :

يُقال : " الزهد والزهادة في الدنيا ، ولا يُقال الزهد إلا في الدين . والزهد ضد الرغبة والحرص على الدنيا " [1]، و" زهد فيه وعنه ، وزهِدَ يزهَدُ ، وزهد زهدًا وزهادةً ، رغب وتركه ، فهو زاهد ، والشيء مزهود فيه أو عنه " [2]وهو ترك الميل إلى الشيء ، وهو القدر اليسير [3].

وفي الاصطلاح : هو الكف عن المعصية ، وما زاد عن الحاجة ، وترك ما يشغل عن الله ، وبغض الدنيا ، والإعراض عنها ، وهو ترك راحة الدنيا طلبًا لراحة الآخرة ، وهو التقشف التام ، ويحمل معنى أوسع من القناعة ؛ فالقناعة هي الاعتدال ، أما هو فهو الورع ، والكف عن المحارم ، والتحرج منها ، وقمع الشهوات [4].

ويعرّف عبد الحكيم حسان الزهد بأنّ " مادته في اللغة العربية تدل على أنه عدم الرغبة ، يُقال : زهد في الشيء ، إذا لم يرغب فيه ، وموضوعه الدنيا . يُقال للرجل إذا انصرف للعبادة ، وترك الاستمتاع بلذائذ الحياة : زهد في الدنيا ، وهذا هو المعنى الديني للزهد " [5]. قال عليه السلام : " إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهدًا في الدنيا ومنطقًا ، فاقتربوا منه ؛ فإنّه يلقّن الحكمة " [6]. ويرى أبو عبد الرحمن السلمي " أنّ الزاهد في الزهد لعلمه أنّ ما يزهد فيه خير له ؛ لذلك قال الشلبي : الزهد خشية ، وحقيقة الزهد أن يزهد فيما سوى الله تعالى ، وقال لخراسانيون : الزهد خلو الأنفس والأيدي عن الدنيا ، وخلو القلب مما خلت منه النفس واليد ، وترك حظوظ النفس أجمع " [7].

---

[1] لسان العرب : مادة زهد

[2] محيط المحيط : مادة زهد

[3] المعجم الوسيط : مادة زهد

[4] محمد شيخاني : التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين ، ص ١٥٥ .

[5] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ــ نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٤م ، ص٢٤ .

[6] محمد فؤاد عبد الباقي : سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ، المجلد الثاني ، ص ١٧٧٣ .

[7] السلمي أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى : تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ، ت سليمان إبراهيم آتش ، ط١ ، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، ١٩٩٣م ، ص ٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرى ابن خلدون أنّ الزهد والتصوف " أصله أنّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوةللعبادة ، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف " [1]، ولكن ذلك لا يعني انقطاع المؤمن عن الدنيا انقطاعًا تامًا كزهد الرهبانية ، بل زهد يوازن بين مصلحة الإنسان في الدنيا ومصلحته في الآخرة ، وهو زهد معتدل يدعو إلى العمل والكسب .

وتنسجم هذه التعريفات مع ما تضمنته نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة عن الزهد في الدنيا وحياتها الزائفة ، كما في قوله تعالى : { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا }[2] ، وقوله عليه السلام عندما سئل : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا في إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يديك أوثق منك بما في يد الله ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصبت بها أرغب منك عنها لو أنها أُبقيت لك " [3].

فالإسلام حاول أن يجعل للمرء حياتين مختلفتين : دنيوية مادية ، يحياها في العالم الأرضي ، وأخرى روحية ، يعيش متشوقًا إليها ، ويحن إلى بلوغها . وقد فُضلت الحياة الثانية على الأولى ، وجُعلت الأولى استعدادًا للثانية ، ولا شك أنّ الإسلام يهدف إلى رفع المستوى الأخلاقي عند الشعوب ، وصدهم عن المبالغة في الاهتمام بالحياة الدنيا .

ولقد كان الإسلام يحض على الحياة الآخرة ؛ فقد وصف الجنة وما يلاقيه المؤمن من نعيم فيها ، والهدف من رسم هذه الصورة الشاعرية للجنة هو تحويل أنظار الناس عما يحيط بهم من حطام الدنيا وما فيها من حياة مادية ضيقة [4].

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ط مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية شارع محمد علي ــ مصر ، دت ، ص ٤٦٧ .

(2) سورة القصص ، آية ٧٧ .

(3) ابن ماجة : المجلد الثاني ، ص ١٧٧٣ .

(4) مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في العصر العباسي الأول ، ص ١٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشعر الديني في العصر الجاهلي :

يرجع الشعر الديني إلى جذور جاهلية تعود إلى ما قبل البعثة النبوية ؛ فقد وجد المتلمسون لدين إبراهيم عليه السلام ، وهم الذين عبدوا الله على طريقتهم الخاصة دون وسائط بينهم وبينه ، وهم الذين سُمّوا بالموحدين ، وسُمّوا بالمتحنفين ؛ لتلمسهم الحنيفية ، وقد طرحوا كل الأديان القائمة في الجزيرة آنذاك ، وأخذوا بديانة جديدة أسسها إبراهيم عليه السلام ، فكان لهم مجاهدات للنفس ، وزهد بعضهم في الدنيا ، ولبسوا الصوف ، ومن أشهر أعلامهم : أمية بن أبي الصلت ، ورقة بن نوفل ابن عم خديجة زوج الرسول عليه السلام ، زيد بن عمروابن عم عمر بن الخطاب ، عبد الله بن جحش ، عثمان بن الحويرث [1].

والشعر الجاهلي مصدر لأكثر الفنون الشعرية في العصر الإسلامي ، ففيه المديح والفخر والحماسة والزهد والرثاء والهجاء والوصف والطرديات ؛ فالزهد إذن موضوع من الموضوعات التي طرقها الشاعر الجاهلي[2] ، ويعد المستشرق الإيطالي كارلونيلينو عدي بن زيد من الشعراء الزهاد ، يقول : " إنّ دينه حمله مرارًا عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلها ، وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائد لطيفة " [3]. ومن ذلك قوله :

من رآنا فَلْيُحَدِّثْ نفسَهُ ... أنّه موفٍ على قَرْنِ زَوالِ

وصروفُ الدّهرِ لا يبقى لها ... ولما تأتي به صمُّ الجبالِ

ومنها كذلك :

وكذاك الدّهرُ يرمي بالفتى في ... طلابِ العيشِ حالاً بعدَ حالِ [4]

ويعلق نيلينو على هذا الشعر بقوله : " فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الإسلاميين ، لا سيما أبي العتاهية ، فليس من البعيد أن شعر عدي بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار نموذجًا للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف

---

[1] ينظر : عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص ٢٩ .

[2] كارلو نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف ـــ مصر ، ط٢ ، ١٩٧٠م ، ص ٩٤ .

[3] المصدر السابق ، ص ٩٠ .

[4] الأصفهاني أبو الفرج : الأغاني ، ت عبد الكريم العزباوي وعبد العزيز مطر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ـــ بيروت ، دت ، ج٢ ، ص ١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزهد الناشئة عن اعتباره ، ثم من الجدير بالذكر أنّ عدي بن زيد أحب في زهدياته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية " [1].

ويتساءل هدارة : " كيف يمكن اعتبار مثل هذا الشعر شعرًا في الزهد ، وهو لا يتضمن غير فكرة عابرة عن موت الناس وزوالهم بعد أن كانوا ، وملاحظة تغير الزمن ودورانه بالناس ؟ " [2].

والواقع أنّ العرب أمة عرفت ألوانًا متعددة من الديانات في الجاهلية ، فكان لكل قبيلة إلهها الخاص ، وقد تشترك بعض القبائل في إله واحد ، فعبدوا الشمس والقمر ، وعبدوا الجن والملائكة ، وكانت المجوسية ، وكانت الدهرية ، وغيرها . لكنّ أشد هذه الديانات تأثيرًا على العرب اليهودية والنصرانية ، فقد انتشرت هاتان الديانتان في بقاع كثيرة من شبه الجزيرة العربية ، ومنها قبيلة تغلب المعروفة ، والتي تمسكت بتنصرها بعد الإسلام .

وبما أنّ المسيحية كانت أكثر انتشارًا ورسوخًا في بلاد العرب من اليهودية ؛ فقد كان لها الأثر البعيد في نفوسهم ، فكان لهم الكهنة والعرافة والأديرة ، وانتشرت الأسماء المسيحية للأفراد من العرب [3].

وكان لهذه الأديان المختلفة المتخاصمة على أرض الجزيرة العربية ، والتي تدور حول الجدل الديني أثر في إفراز نزعة دينية جديدة تسعى لتلمس دين إبراهيم عليه السلام ، وقد عبد أصحاب هذه النزعة الله وحده ، ودعوا إلى ترك عبادة الأوثان ، وتحدثوا عن القبور والبعث والحساب والعقاب ، وسُجّل ذلك في بعض أشعارهم ، ولا ريب في ذلك ؛ فالشعر ديوان العرب الذي يسجل أحداث حياتهم ، ويحفظ تاريخهم . ولو نظرنا إلى أشعار الجاهلية لاطمأنت نفوسنا إلى وجود مثل هذه النزعة الدينية الخالصة فيها ، والتي تتفاوت فيما بينها في عمقها ، وتناولها لأمور الغيب والحياة والموت والبعث والقبور [4].

---

[1] كارلو نالينو : تاريخ آداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، ص ٩١ .

[2] محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ـــ مصر ، ١٩٦٧م ، ص ٢٨٠ .

[3] ينظر : عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي : ص ٢٨ .

[4] المصدر السابق : ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ظهور المتحنفين قبيل الإسلام ينم عن مدى الحيرة التي ألمت بالناس في الجزيرة العربية حول الإيمان واليقين ، " ولم يكن هؤلاء المتحنفون يسيرون في تعبدهم ونسكهم على طريقة مرسومة ، وأنظمة واضحة ، ولكن كان لكل واحد منهم طريقة خاصة في التأمل والزهد والإعراض عن الدنيا وما فيها من ملذات وزخرف ، وهم في هذا يشبهون زهاد المسلمين الذين مهدوا لظهور التصوف في آخر القرن الثاني الهجري " [1]، وهم يسلكون طريقًا يبحثون فيها عن وسيلة لمعرفة كيفية العبادة المثلى ، كما أنهم يتخذون الزهد بالدنيا وترك زينتها وزخرفها وسيلة لتحقيق هدفهم .

فمن الشعراء الأحناف ، ورقة بن نوفل ، وهو ممن اعتزلوا الأوثان في الجاهلية ، وامتنع عن أكل ذبائحها ، ويروى أنه كان يمر ببلال بعد البعثة ، وهو يُعذّب ويقول : أحد أحد ، فيقول : أحد أحد يا بلال ، ووالله لئن قتلتموه ، لأتّخِذَنّهُ حَناناً " [2].

وفكرة الزهد التي تناولها ورقة بن نوفل ، أو بعبارة أدق ، التي أشار إليها في بعض أبيات شعرية ، يُستَشفُّ منها رائحة الزهد بالمفهوم الديني ، يقول :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويؤدى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يومًا خزائنُهُ ... والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا[3]

ومن الشعراء الأحناف أيضًا ، زيد بن عمروبن نفيل ، إذ كان عمه الخطاب والد عمر أشد الناس عليه ، إذ عاتبه على فراق دين آبائه [4] ؛ وقد تناول زيد ذلك في شعره ، مشيرًا إلى الإيمان بوحدانية الله ، وتحكمه بالكون ، يقول :

وأسلمت وجهي لمن أسلمتْ ... له الأرضُ تحملُ صخرًا ثقالا
دحاها فلمّا رآها استوتْ ... على الماء أرسى عليها الجبالا [5]

---

[1] المصدر السابق ، ص ١١٢ .
[2] المصدر السابق ، ص ١١٤ .
[3] الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص ١٢١ .
[4] ابن قتيبة : المعارف ، ت ثروت عكاشة ، دار المعارف ـــ مصر ، ط ٤ ، د ت ، ص ٥٩ .
[5] الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص ١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم كذلك أبو قيس الراهب ، الشاعر الذي أكثر من القول في الدين والنصح والوعظ والوصايا ، إذ يدعو إلى العبادة وتقوى الله تعالى وحده دون سواه ، وهو يوصي بالتسبيح صباح مساء ، يقول :

سبحوا الله شرق كل صباح   طلعت شمسه وكل هلال

عالم السر والبيان لدينا   ليس ما قال ربنا بضلال[1]

أما أمية بن أبي الصلت ، فيعدّ من أكثر الشّعراء المتحنّفين ظهوراً ، وأغزرهم مادة ، وأكثرهم تنوعاً في موضوعات شعره ، وهو أشعر ثقيف ، قال عنه الكميت: أميّة أشعر الناس، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال [2].

وعُرِف هذا الشاعر بالتديّن والتعبّد ، فزهد في الدنيا ، ولبس المسوح وتعبّد ، ووصف الجنّة والنار في شعره ، وحرّم الخمر ، ويروى أنّه عندما بُعِث سيدنا محمد – عليه السلام – " أسقط ما في يده وقال: أنا كنت أرجو أن أكونه " [3]. وما أن سمع الرسول – صلى الله عليه وسلّم – شيئاً من شعره حتى قال : آمن لسانه ، وكفر قلبه ، إلاّ أنه ظل يناصب المسلمين العداء بعد البعثة ، ورثى قتلى بدر ، مات في السنة التاسعة للهجرة.

ويقسّم عبد الحكيم حسّان شعر أميّة إلى قسمين : القسم الأول : شعر حسّي دنيوي ، شارك فيه بقية الشّعراء وسار على نهجهم ، وكانت موضوعاته كموضوعاتهم ،يمدح ويرثي ويفتخر ، أما القسم الثّاني : شعر روحي ديني ، يتناول فيه الأمور العقديّة ،وما يتعلّق بحياة الإنسان الروحيّة في الدنيا والآخرة [4].

ومن أشعاره التي تظهر فيها النزعة الروحية بشكل جلي قبل الإسلام ، والتي أنشدها النبي عليه السلام ،وذكر فيها الحنيفية قوله :

الحمد لله مُمْسانا ومَصْبَحنا   بالخير صبّحنا ربي ومسّانا

[1] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ، ط٢ ، ١٩٣٧م ، ص ١٣٨ .

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج٤ ، ص١٢٢ .

[3] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص ١١٦ .

[4] المصدر السابق ، ص١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رَبُّ الحنيفة لم تنفد خزائنه ... مملوءةً طبَّقَ الآفاقَ سُلطانا[1]

وفي الفناء وحتمية زوال بني البشر يقول :

بينا يربينا آباؤنا هلكوا ... وبينما نقتني الأولاد أفنانا

وقد علمنا لو أنّ العلم ينقصنا ... أن سوف يلحق أخرانا بأولانا[2]

وقد تبدو عند الشاعر نزعة إلى الإنزواء عن الناس ، والزهد في الدنيا ، والإيمان بأن العيش مهما طال أمده ، لا بد له من نهاية وزوال ، ويظهر ذلك بصبغة روحانية في الأبيات التالية :

كل عيش وإن تطاول دهراً ... منتهى أمره إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ... في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

اجعل الموت نصب عينيك واحذر ... غولة الدهر إنّ للدهر غولا[3]

والشاعر يؤمن بالبعث من القبور ، واليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب ، ويؤمن بما تحتويه الجنة من نعيم ، والنار من عذاب ، فالناس يسيرون في طريقين ، يقول :

هما طريقان فائز دخل الجنّـ ... ـة حفّت به حدائقها

وفرقة في الجحيم مع خرق الشيـ ... ـطان يشقى به مرافقها[4]

والناس لا يصحبون معهم إلا أعمالهم التي ستعرض عليهم ، فإنّهم سوف يفارقون ما جمعوا من المال ، وما أعجبهم في الدنيا ، يقول :

قد أيقنت أنها تصير كما ... كان يراها بالأمس خالقها

وأنّ ما جمعت وأعجبها ... من عيشة مرة ففارقها[5]

---

(1) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ص١٢٩ .

(2) المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٢٩ .

(3) المصدر السابق ، ج٤ ، ص١٣٢ .

(4) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، المجلد الثاني ، ص٣٧٤ .

(5) المصدر السابق ، ص٣٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مات أمية في السنة التاسعة للهجرة ، ولا يزال كافرًا ، إلا أنّه ومن خلال أشعاره تـأثر تأثرًا واضحًا بالقرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه ، وأفكاره وأساليبه ؛ فسار على نهجه ، ومثّـل ذلك بقوله :

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرًا — يوم التـغابن إذ لا ينفع الحذرُ

مستوثقين مع الداعي كأنّـهم — رجل الجراد زفته الريح تنتشرُ[1]

فهو في هذه الأبيات يبدو متأثرًا بسورة مريم تأثرًا واضحًا ، بألفاظـها ومعانيـها ، وقـوافي الآيات فيها ، فكأنه استوعب السورة استيعابًا عميقًا ، ثم صاغها شعرًا ، حيث يقول :

يوم نأتيه وهو رب رحيمٌ — يعلم الجهر والكلام الخفيّا

أسعيد سعادة أنا أرجو — أم مهان بما كسبت شقيّا[2]

ويدعو الشاعر إلى طاعة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؛ لكي ينجو الإنسان من الجحيم ، فمن يصرّ على عناده يلق الندم والخسارة ، يوم العرض على الله ، فكيـف يصر الشاعر على كفره ؟ ويدعو إلى طاعة الرسول عليه السلام ، وهو الذي رثى قتلى المشـركين في معركة بدر ، ودافع عنهم ، ومات كافرًا ، ورغم كل ذلك قال :

أطيعوا الرسول عباد الله — تنجون من شر يوم ألم

ويقول :

دعانا النبي به خاتمٌ — فمن لم يجبه أسر الندم[3]

وبذلك نرى أنّ الشعراء المتحنفين يقبلون في أشعارهم الزهديـة علـى توحيـد الله سبحانه وتعالى ، واعتقدوا بأنّه قادر على بعث الخلق ، وأنه سيحاسب الناس يوم الحشـر ، وغدا لهؤلاء عقيدة يؤمنون بها ، وحياة روحية يعملون على تطبيقها ، ، فيزهدون بالدنيـا ، ويرهقون أنفسهم بالمجاهدات والرياضات ، فكان لاطّلاعهم على الكتب القديمة ــ وأميـة

[1] محمد هاشم عطية : الأدب العربي وتاريخه ــ العصر الجاهلي ، مطبعة العلوم ــ القاهرة ، ١٩٣٢م ، ص٣٦٢ .

[2] الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن ، ط١ ، المطبعة الأميرية ــ بولاق ، ١٣٢٩هـ ، ج٩ ، ص٨٢

[3] البغدادي عبد القادر بن عمر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، المطبعة الأميرية ــ بولاق ، ط١ ، ج١ ، ص١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكثرهم اطّلاعًا ـــ بالغ الأثر في تهذيب نفوسهم وتوجيهها الوجهة الروحيـــة الـــتي تشـــعرهم بالراحة والسعادة .

ولا تقتصر الحياة الروحية على الشعراء الأحناف ، بل كانت موجـــودة في الشـــعر الجاهلي ، وتشكل غرضًا وموضوعًا من الموضوعات التي يتناولها معظم الشعراء ، لكن الكـثرة أو القلة في ذلك متعلقة بمدى ثقافة الشاعر الدينية ، واطّلاعه علـــى الكتـــب الســـماوية ، فالاطّلاع على العقائد المسيحية ومذاهبها كان موجودًا في الجاهلية عند العديد من الشعراء .

فمن الشعراء الروحانيين عدي بن زيد العبادي ، وهو شاعر نصراني قال أشعارًا كثيرة في النسك والعبادة ؛ إذ كان ذا ثقافة دينية واسعة مكنته من ذلك ، فلم يكن متدينًا فحسب ، بل كان واعظًا ناسكًا ، " وشعر عدي معظمه في الزهد ، وفي التبرم من الدنيا المتقلبة الـــتي لا تدوم على حال ، وبعضه في تنفير الناس من الحياة ، وتذكيرهم بالموت نهاية كل حي ، بالرغم من كل المتع التي انغمسوا فيها ، والقصور والمباني التي شيدوها " [1].

وعلاقة الشاعر بالنعمان الثالث الذي تولى ملك الحيرة عام (٤٩٨م) [2] خير دليـــل على ذلك ؛ إذ قدم عليه ونادمه ، وصاحبه في رحلاته للصيد في الحيرة ، فمـــرا بشـــجرة في إحدى رحلاتهما ، فقال عدي بن زيد للنعمان : " أيها الملك ، أتدري ما تقول هذه الشـــجرة ؟ ، قال : لا ، قال : تقول :

رُبَّ ركب قد أناخوا عندنا ... يشربون الخمر بالـــماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا ... وكذاك الدهر حالا بعـــد حال

قال : ثم جاوزا الشجرة ، فمرا بمقبرة ، فقال له عدي : أيها الملك ، أتدري ما تقول هـــذه المقبرة ؟ ، قال : لا ، قال : تقول :

أيها الركب المخبو ... ن على الأرض المدون

فكما أنـــتم كنـــا ... وكما نحـــن تكونـــون

---

(١) أحمد جمال العمري : الشعراء الحنفاء ، دار المعارف ـــ مصر ، ط ١ ، ١٩٨١م ، ص١٣٧ .

(٢) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقال النعمان : إن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان ، وقد علمت أنك أردت عظتي ، فما السبيل التي تدرك بها النجاة ؟! قال : تدع عبادة الأوثان ، وتعبد الله ، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم ، قال : أوفي هذا النجاة ؟ قال : نعم ، فتنصر يومئذ " [1].

ويشتمل شعره على الوعظ والتذكير والإرشاد ، ويصور الحياة الصادقة لحياة الرهبان المسيحيين في الجاهلية التي تقرب إلى حد ما من حياة الزهاد المسلمين في نهاية القرن الأول ، ويروى أنّ سفيان بن عيينة كان يستحسن شعر عدي ، ويروي له أبياتًا في ذكر الأقوام السابقة ، ومنها :

أين أهلُ الديارِ من قوم نوحٍ ثم عادٍ من بعدهم وثمودِ[2]

ويعبر الشاعر عن اعتقاده بأن السعادة الحقيقية لا تدوم ، ومن ظن ذلك واعتقده ، فهو مغرور جاهل ، يقول :

أرَواحُ مودعٍ أم بكورُ لك فاعمد لأي حال تصيرُ
أيها الشامت المعير بالد هر أأنت المبرأ الموفورُ
أم لديك العهد الوثيق من الأ يام أنت جاهل مغرورُ[3]

أما الحكمة ، فلها صولة معروفة في الشعر الجاهلي ، وهي قول موجز يتضمن حكمًا مسلما ، وهي ضعيفة الصلة بحياة أخرى أو عالم روحاني ، وكل ما تقوم عليه لا يتعدى المحسوسات ، فهي إذن تقوم على الملاحظة والتجربة السطحية الساذجة لشؤون الحياة [4]، فالشاعر الجاهلي يؤمن بالموت وزوال الإنسان ، وإنه لا يعرف متى يأتيه الأجل ، ويعلم أنّ الشاب قد يسبق العجوز في الموت ، وأنّ جامع المال قد يتركه لغيره لا له ، فهذه وغيرها تجارب تقوم على التجربة الحسية ، من خلال حياة معاشة ، فهذا الأضبط بن قريع السعدي يقول :

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج٢ ، ص١٥٢ .
[2] ابن قتيبة : عيون الأخبار ، المجلد الثاني ، ص٣١٧ .
[3] الأصفهاني : الأغاني ، ج٢ ، ص١٥٢ .
[4] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد يجمع المال غير آكلـــه ويأكل المال غيرُ من جمعه[1]

وفكرة التوكل على الله نجدها ماثلة عند طرفة بن العبد في قوله :

ولست بخابئ أبدًا طعاما حذار غد لكل غد طعامُ[2]

ويقول في الحياة والموت وتناقص العمر ، فما يحدو بالإنسان لعدم التمسك بالحياة الدنيا :

أرى العيش كنـــزًا ناقصًا كلَّ ليلة وما تَنْقُص الأيامَ والدهرُ ينفـــدِ

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدًا غدًا مَا أقرب اليوم من غدِ[3]

وفي هذا المستوى من الحكمة المبنية على التجربة السطحية الحسية ، نجد قس بـــن ساعدة حكيم العرب يقول في حتمية الموت وانقضاء الأجل :

في الذاهبين الأولـــين مـــن القرون لنا بصائـــر

لما رأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

أيـــقنت أني لا محـــا لة حيث صار القوم صائر[4]

أما لبيد بن ربيعة ، فله أشعار في الحكمة ، تظهر فيها معاني الزهد في مثل قوله :

المـــرء يـــدعو للسلا م وطول عيش قد يضره

يـــــؤدي بشاشته ويأ تي دون حلو العيش مره

وتصـــرف الأيام حتى ما يـــرى شيـــئا يسره

كم شامت بي إن هلكـــ تُ وقـــائـــلٍ لله دره[5]

ولبيد شاعر سما بشعره إلى ما وراء الطبيعة ، فهو يسمو إلى مصدر العدل ، فيؤمن بالله إيمانًا مطلقًا ، ويتوكل عليه حتى يمكن القول إنّ لبيد خالق الشعر الوعظي ، وهو يمثل النشـلط الروحي ، بما تحتويه من قوة عاطفة وتأثير [6]، وله قصيدة في رثاء النعمان منها :

---

(1) المصدر السابق ، ج١٨ ، ص١٢٩ .

(2) النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مطبعة كوستا توماس ـــ القاهرة ، ج٣ ، ص٦٣ .

(3) ابن العبد طرفة : ديوان طرفة بن العبد ، ت فوزي عطوي ، دار صعب ـــ بيروت ، ١٩٦٩م ، ص٤٨ .

(4) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب : البيان والتبيين ، المطبعة الرحمانية ـــ مصر ، ط٢ ، ١٩٣٢م ، ج١ ، ص٣٠٩ .

(5) إحسان عباس : شرح ديوان لبيد ، مطبعة حكومة الكويت ـــ الكويت ، ١٩٦٢م ، ٣٥٦ .

(6) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص١٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكلُّ امرئٍ يوماً سيعلمُ سَعْيَهُ إذا جمعت عِنْدَ الإلهِ المحاصِلُ

ومنها :

أرى الناسَ لا يدرونَ ما قَدْرُ أمرِهِمْ بلى كلُّ ذي رأيٍ إلى اللهِ وائلُ
الا كل شيءٍ ما خـــلا اللهَ باطـــلُ وكـــلُّ نعـــيمٍ لا مَحَالَةَ زائِـــلُ[1]

وتفيض المعاني الروحانية ، والإيمان بالله تعال في شعره ، من خلال مراثيه لأخيه أربد ، فهو يروي أنّ الإنسان يبلى ويزول عن هذه الأرض ، وتبقى بعده الجبال والأبنية الضخمة ، وأنّ الناس يسكنون الأرض ، ثم يتركونها ، ويأتي غيرهم ، فهم كالشهب التي تغدو رمادًا بعد أن كانت ساطعة الضوء ، وإنّ ما ينفع هو تقوى الله وعبادته ، وترك مـــا في الدنيـــا ؛ لأنّ الأموال ما هي إلا ودائع ليست للإنسان ، ولا ينفعه شيء سوى الأعمال الخـــيرة ، والـــبر والتقوى تقربًا لله تعالى :

بَلينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ وتبقى الجبال بعدنا والمصانعُ

ومنها :

وما المرء إلا كالشِّهابِ وضوئه يحورُ رماداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ
وما البِرُّ إلا مُضْمَراتٌ منَ التُّقَى وما المَالُ إلا مُعْمَرَاتٌ ودائعُ[2]

وتتميز بعض أشعاره في الوعظ بأنها تحتوي على نفحات روحانية قريبة من الروحانيـــة الإسلامية المؤمنة بالبعث والحساب والعقاب ، وأنها تحقر الدنيا ، وتقلل من شأنها ، كما يظهر عمق إيمانه بالله واليوم الآخر ، وحساب الناس بعد بعثهم ، فهو داعية إلى الخير والتقوى :

إنما يحفظُ التُّـــقَى الأبـــرارُ وإلى الله يســـتقر القَـــرارُ
وإلى اللهِ تُرجَعونَ وعِنْدَ اللـــ ـــهِ وِرْدُ الأمورِ والأصْدارُ[3]

وفي القناعة بأنّ الله علام الغيوب ، وأنّ الإنسان لن ينال إلا ما قسم له ، يقول :

---

(1) إحسان عباس : شرح ديوان لبيد ، ص٢٥٥ ـــ ٢٥٦ .

(2) المصدر السابق ، ص١٦٩ .

(3) المصدر السابق ، ص٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذين رأوا زهده وعبادته : " عشق محمد ربه ، هكذا كانت حياتـــه ـــ صلـــى الله عليـــه سلم ـــ وهذه الحالة هي التي هيأته ليتلقى الوحي من الملك " [1].

ويستمر عليه السلام بهذه الأعمال النفسية والفكرية والعبادة بعد البعثة ، بعد أن أمـــره الله سبحانه وتعالى بأن يقضي قسطًا كبيرًا من لياليه بالعبادة وقراءة القرآن ، لقوله تعـــالى : { يا أيها المزّمّلُ قم الليلَ إلا قليلا * نصفَهُ أو انقُص منه قليلا * أو زد عليه ورتـــل القـــرآنَ ترتيلا } [2]. وقد روي عنه عليه السلام أنّه قال : (خيرت بين أن أكون نبيًا ملكًا ، أو نبيًـــا عبدًا ، فأشار إلي جبريل عليه السلام أن أتواضع ، فقلت : بل أكون نبيًا عبدًا ؛ أشبع يومًا ، وأجوع يومًا) [3].

---

[1] المصدر السابق ، ص ١٣ .

[2] سورة المزمل : الآيات ١ ـــ ٤ .

[3] الهيثمي نور الدين علي بن بكر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مؤسسة المعارف ـــ بيروت ، ١٩٨٦م ، ج٩ ، ص١٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعر الزهد في عصر صدر الإسلام

أحدث مجيء الإسلام انقلابًا عقائديًا وفكريًا في الجزيرة العربية ، وغيّر مجرى التاريخ في هذه المنطقة بشكل خاص ، والعالم بشكل عام . وقد تمثل ذلك بالدين الجديد الذي بُعِث به النبي عليه السلام بشخص الرسول، والقرآن الكريم المنزل عليه، الذي بهر الناس بما جاء به من معتقدات ، وأسس وأركان، كما بهرهم بأسلوبه وبلاغته وفصاحته ، فسلّم به المسلمون ، وطبقوا ما أمرهم به ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، فكان دستورهم في الدارين الدنيا والآخرة .

وقد دعا القرآن إلى الزهد من خلال العبادة والإيمان ، فاعتمد تقليل الاهتمام بالدنيا ، والابتعاد عن اللهو والمجون ، والإقبال على الله والعمل من أجل الآخرة بالعبادة الخالصة الصادقة ، فصوّر لهم الدنيا بزينتها وجمالها وزخرفها ، أنها متقلبة خادعة ، وأنها متاع زائل لا بقاء له ، فقال تعالى : { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } [1]، وصوّر لهم الجنة ونعيمها ورغّبهم فيها ، وصوّر الثواب الجزيل لمن استقام و حسّن إيمانه ، فقال تعالى : { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * } [2].

وقد بدأت إرهاصات الدعوة والزهد عند الرسول — صلى الله عليه وسلم — قبل الدعوة ، إذ كان يرى في منامه فتتحقق الرؤيا [3]، ثم حُبِّبَت إليه الرؤيا ، فصعد إلى غار حراء ليُخضع نفسه للمجاهدات والعزلة ، والتفكر والتأمل ، ولعله في ذلك وضع البذرة الأولى التي نبت فيها زهد الزهاد ، وعبادة العبّاد ، وتصوّف الصوفية ، فكان عليه السلام يعيش حياة زاهدة ، لا تشوبها شائبة من شوائب الحياة المادية ، ولا يفسدها عليه شيء من متاع الدنيا ، فنأى بنفسه عن الغنى والثراء ، وجانب مظاهر الترف والإسراف ، وحين أقبلت عليه الدنيا أعرض عنها واختار عليها الآخرة الباقية ، وخرج من الدنيا عليه السلام ، ولم يشبع من خبز الشعير ، وكان فراشه من أدم وحشوه ليف ، وقد شهده عمر بن الخطّاب — رضي الله

---

[1] سورة الحديد : آية ٢٠ .

[2] سورة النبأ : الآيات ٣١ — ٣٣ .

[3] التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين ، ص ٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنه — يضطجع على حصير أثّر في جنبه ، فعرض عليه أن يتخذ غطاء ، فقال عليه السلام : (مالي وللدنيا ؛ ما أنا في الدنيا إلاّ كراكبٍ استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها) [1].

لذلك يعدّ عليه السلام أول زاهد في الإسلام ، فكانت حياته مَثلاً لما جاء في القرآن الكريم ، وكما وصفته عائشة — رضي الله عنها — كان خلقه القرآن . فكانت سنّته عليه السلام قولاً وعملاً ، مدخلاً للزهد والتصوّف لمن عاصره واستنَّ بسنّته من بعده . والصحابة — رضي الله عنهم - هم الرعيل الأول الذي تربى في مدرسته ، فكان دستورهم القرآن الكريم ، ومعلمهم رسول الله — عليه السلام - ، وأهل الصفّة خير من يمثل هؤلاء أحسن تمثيل ، فكان أن تأججت أرواح المؤمنين بمحبة الله ، واستصغروا الدنيا أمام عظمة الله وثوابه ، فقدّموا أنفسهم شهداء العقيدة ، واسترخصوا الغالي ، وأنفقوا أموالهم وجاهدوا بكل ما يملكون ، وإننا لنجد ذروة التربية الروحيّة الصادقة عند الخلفاء الراشدين ، وكبار الصحابة — رضوان الله عليهم — مجسّدة في سلوكهم وأقوالهم ووجدانهم ، فانطلقوا بها فاتحين مهديين .

ولم يكن الشعر بمعزل عن هذه الطريق ، فقد واكبت الأشعار الدعوة مسجّلة الفتوحات والغزوات ، مدافعة عن الإسلام والمسلمين . ولم يقتصر تأثير القرآن في نفوسهم بالأثر الديني والعقائدي فحسب ، بل أثّر بفصاحته وأدبه وبلاغته ، فلامس قلوبهم وخاطب عقولهم ، فانطلقوا ينادون به ، داعين إلى القرآن وسنّة النبي ، يتدافعون إلى التقوى والعبادة ، والتوكل والإيمان بالقضاء والقدر ، وذم الدنيا وتحقيرها ، بعد أن كشف القرآن الكريم زيفها وفسادها ، مسجلين ذلك في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية ، واضعين البذور الأولى لشعر الزهد في الإسلام .

وعندما أراد المؤمن أن يعبر عن إيمانه كانت الدعوى إلى التقوى أول ما يقوم به ، لما للتقي من مكانة رفيعة عند الله تعالى ، إذ وعدهم بذلك بقوله : { إنَّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ

---

[1] محمد فؤاد عبد الباقي : سنن ابن ماجة ، ص١٣٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أَتقاكُم } [1]، لذلك آمنوا أن التقوى تخلق في النفس راحة واستقرارا ، وهي مخرج من كل مآزق الدنيا والآخرة ، لقوله تعالى : { وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً } [2]. فصُبغت بذلك حياة المسلمين في تلك الحقبة بالصبغة الروحية المحضة ، وكانت أشعارهم منغمسة بالإيمان والتقوى ودم الشهادة ، فقد كان بعض الشعراء ينظم ما يسمعه من أحاديث الرسول شعراً . فقد روي أن قيس بن عاصم رئيس وفد تميم ذهب إلى النبي – عليه السلام – قال : (عظنا يا رسول الله ، فوعظهم ، فقال قيس : لو أن امرأ نظمها لتكون شيئاً نفتخر به ، فقال الصلصال : أنا أنظمها ، فنظم الأبيات التالية ، والتي تدعو إلى التقوى والإيمان بالله ، والإكثار من العمل الصالح :

تجنّب خليطاً من مقالك إنما ... قرين الفتى في القبر ما كان يعملُ
ولا بدّ بعد الموت من أن تعده ... ليوم ينادي المرء فيه فيقبلُ
وإن كنت مشغولا بشيء فلا تكن ... بغير الذي يرضى به الله تشغلُ
ولن يصحب الإنسان من قبل موته ... ومن بعده إلا الذي كان يعملُ
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلا بينهم ثم يرحلُ [3]

وكذلك اندفعت صيحات المجاهدين الفاتحين مهللين ومكبرين بالأراجيز المفعمة بالزهد والتقوى ، والاندفاع للقتال ؛ أملا في نيل الشهادة في سبيل الله ، مستهترين بالدنيا وزيفها ، فعمر بن الحمام يندفع للقتال يوم بدر ، بعد أن كان يأكل بضع تمرات في يده ، فلما اشتد وطيس المعركة ، انتفض ورماهن ، وأخذ ينشد ، وهو يقاتل المشركين مرتجزًا :

ركضًا إلى الله بغير زادِ ... إلا التقى وعمل المعادِ [4]

ودعا شعراء الزهد إلى الصلاة والدعاء وطلب المغفرة من الله تعالى ، وكان علي بن أبي طالب ـــ كرم الله وجهه ـــ من هؤلاء الذين عملوا على ترسيخ مبادئ الإسلام ، من

---

[1] سورة الحجرات : الآية ١٣
[2] سورة الطلاق : الآية ٢
[3] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ١٩٧١م ، ص ٥٢٩
[4] الأصفهاني : الأغاني ، ج٤ ، ص١٩٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلال ما نظمه من أبيات تعليمية في الدعوة إلى التقوى والعبادة ، فقد نصح بالصلاة النافلة عن الفرائض ، وليكن ذلك اغتنامًا للوقت والجهد ، ويرى أنه على المؤمن أن يراقب نفسه إذا أوشكت الوقوع في قول الباطل ، وعليه أن يسارع إلى التسبيح وذكر الله :

اغتنم ركعتين زلفى إلى اللـ ـه إذا كنت فارغًا مستريحا

وإذا ما هممت بالقول في البا طل فاجعل مكانه تسبيحا [1]

وتتجسد التوبة لله تعالى في أبيات شعرية ، يعلن فيها الإمام اعترافه بذنبه ، ويتمنى المغفرة من الله ، وأن تمحى خطيئته ، وتقبل توبته ، وهذه الأمور حقائق هامة في حياة المسلم الروحية ، فالله سبحانه يغفر الذنوب جميعا ، لذلك لا بد من الالتزام بها ، فالإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ يعلن رغبته في التوبة لله تعالى ، ولا يتمنى إلا رضاه عنه ، وإدخاله في جنات النعيم :

أريد ثواب الله لا شيء غيره ورضوانه في جنة ونعيم [2]

ويعد النابغة الجعدي من الشعراء الذين جندوا أنفسهم لخدمة الدين ، وتجسيد معانيه وقيمه في أبيات شعرية ، يتعظ الناس بها ، مستمدًا عناصر وعظه هذه من الآيات القرآنية الكريمة ، ومقتبسًا للمعاني ، ومستلهمًا للقصص القرآني ، كما يبدو ذلك في قصيدة طويلة تحدث فيها عن العديد من المعجزات الربانية ، داعيا إلى حسن العبادة والتقوى ، وقد أشار العديد من الباحثين لهذه القصيدة [3]، والتي مطلعها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما [4]

وأكثر الشاعر في هذه القصيدة من ذكر الأمم السابقة ، والاتعاظ بما حل بها وبحضارتها ، إذ يدعو الناس للتقوى والإيمان بالله ؛ لأنه لا بقاء لحي على الدنيا ، واستمرار السعادة فيها غير ممكن ، فمن سره زمن ساءته أزمان .

---

[1] علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص٤٥ .

[2] المصدر السابق ، ص١٢٦ .

[3] شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ، دار المعارف ـ مصر ، ط٤ ، دت ، ص١٠٤ـ١٠٥ . وينظر : مي يوسف خليف : التيار الإسلامي في القصيدة الأموية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ العجالة ، ١٩٩٣م ، ص٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

[4] النابغة الجعدي : ديوان النابغة الجعدي ، منشورات المكتب الإسلامي ـ دمشق ، ط١ ، ١٩٦٤م ، ص١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليست الدعوة إلى التقوى هي الموضوع الوحيد الذي تطرق له الشعراء ، فالدعوة للتوكل احتلت حيزًا في أشعارهم . وقد جاء ذلك بعد القرآن الكريم الذي سبقهم إلى ذكر التوكل في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله : { وَمَنَ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }[1] ، وقال تعالى : { وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُون }[2] ، وقال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم : { فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكل عَلَى اللهِ } [3] ، وقال : { وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إن كُنتُم مُؤمِنِينَ } [4] .

وبذلك فقد جعل سبحانه وتعالى التوكل عليه حقيقة الإيمان ، فأمر الرسول والمؤمنين به ؛ لذلك شاع التوكل بين الصحابة والتابعين ـــ رضوان الله عليهم ـــ عاملين بما أنزل من الذكر الحكيم ، وما عاصروه أو سمعوه من سنته عليه السلام ، فأيقنوا أنّ العبد بحركته لا يزداد في رزقه ، ولا بعدم سعيه وقعوده ، وترك طلبه ينقص من رزقه ؛ لأنّ الله تعالى قد قسم الأرزاق وفرغ منها ، وتولى القيام بالقسمة دون غيره ، فما للمرء إلا ما كتب ، وقُدّر عليه .

وقد دعا الشعراء إلى التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره ، والتسليم بذلك ؛ لأنّ الله إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن ، فيكون ، فعمل الشعراء على نظم بعض الأشعار التي تستخدم معاني القرآن الكريم ، داعين فيها إلى ما يدعو إليه .

ومن الشعراء الذين دعوا إلى التوكل واطمأنت نفوسهم إليه ، عبد الله بن بديل الخزاعي ، الذي يرى أنّ الأمور كلها بيد الله ، موكولة له ؛ لذلك لم يبق له إلا أن يصبر على تقلبات الدهر ، والتوكل على الله ، ثم المشي في الرعيل الأول ، رعيل كبار الصحابة والعبّاد والزاهدين ، ففي البيتين التاليين نلمح الهدوء والاستقرار النفسي في ظل الإسلام :

لم يبق إلا الصبر والتوكّلُ ... ثم التمشي في الرعيل الأولِ

مشي الجمال في حياض المنهلِ ... والله يقضي ما يشاء ويفعلِ [5]

---

[1] سورة الطلاق : الآية ٣ .

[2] سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

[3] سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

[4] سورة المائدة : الآية ٢٣ .

[5] ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، انتشارات اسماعيليات ـــ قم ران ، دت ، ج٣ ، ص١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يسارع الشاعر في مناجاة الله سبحانه وتعالى بالقول : عليك أتوكل ، وإليك أعود في كل أمري ، وهو يسلم نفسه لله ، يوجهها حيث يشاء ، ويدعوه أن يغفر ذنوبه عند الموت . فهذا ضرار بن الأزور يناجي الله تعالى معلنًا توكله عليه :

عليك ربي في الأمور المتّكل اغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل[1]

ويرتبط بالتوكل الإيمان بالقضاء والقدر ، الذي إذا آمن المؤمن به وعمل به ، سكنت نفسه ، ورضي بالخير والشر ؛ فيشكر أو يصبر ، ويسكن قلبه إلى ما في الغيب مما قد قسم له ، فيكون سكونه لما في الغيب كسكونه لما في اليد ؛ لأنّ ما في اليد قد تغيره حوادث الدهر ، لكن ما عند الله باق ، ويأتي في أوقاته ، فإذا عرف العبد ذلك كان مؤمنًا إيمانًا قويًا لا يتغير عند إقبال الدنيا أو منعها عنه .

وقد عبر شعراء صدر الإسلام عن إيمانهم بالقضاء والقدر ، فهذا كعب بن زهير يتعجب من سعي الفتى خلف رزقه ، وقد قدر الله له ما خبأه ، وهو يسعى لأشياء قد لا يدركها ؛ لأنه لا يدرك إلا كتب له :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدرُ

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها والنفس واحدة والهم منتشرُ[2]

وما من شك أنّ التوكل والإيمان بالقضاء والقدر يكونان سببًا في تهدئة الروع ، وتخفيف المصاب عند امتحان الدهر ، فيدرك المرء أنّ ما أصابه قد قدّر له ، وكتب عليه ، وما من سبيل لتأخيره أو لتغييره ، فقد روي أنّ هدبة بن خشرم قال لأبويه قبل موته بقليل ثأرًا برجل قتله أبياتًا أظهر فيها صبرًا وجلدًا كبيرين ، فقد آمن بالقضاء والقدر ، وأدرك أنّ ما يصيبه من الله لا رادّ له ، فهدّأ من روع أبويه ، وطمأنهم بأنه ذاهب إلى دار المستقر ، وأنّ هذا هو قدره الذي يجب أن يواجهه :

أبلياني اليوم صبرًا منكما إنّ حزنًا إن بدا بادئ شرْ

لا أراني اليوم إلا ميتًا إنّ بعد الموت دار المستقرْ

---

[1] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص١٨٢ .

[2] المصدر السابق ، ص٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اصبرا اليوم فإنّي صابرٌ كل حي لقضاء وقدرٌ[1]

ولعلّ قضية الرزق هي عنصر آخر يرتبط بالتوكل ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وهي القضية الهامة التي يجدّ المرء ويجتهد من أجلها ، منذ أن خلق الله الإنسان إلى نهاية الخلق ، فما من إنسان إلا ويسعى لينال رزقه ، ويعمل جاهدًا على زيادة كسبه ، وهذه قضية تعرض لها شعراء صدر الإسلام ، فأدركوا أنّ المرء سينال ما كتب له من الرزق إن جدّ واجتهد في سعيه ، أو قعد عن طلبه والحصول عليه ، ولا يفهم من هذا أنّ الإسلام يدعو إلى الكسل والقعود عن العمل ، وعدم السعي في مناكب الأرض ، بل يدعو إلى الاعتدال في ذلك مع الإيمان بأنّ الأمور موكلة بيد الله ، ولا مانع لما كتبه الله .

وقد ذهب بعض العبّاد والزهاد إلى المغالاة في فهمهم قضية الرزق ، فيدعون إلى عدم السعي والجدّ في العمل من أجل نيل رزقهم . هذا ما أشار إليه الحسين بن علي عندما قال : من الأفضل للمرء ألا يسعى لتحقيق رزقه ، ما دام ذلك مقدّرًا ومكتوبًا ، وأنّه سوف يأتيه دون جهد أو تعب :

وإن كانت الأرزاق شيئًا مقدّرا فقلة سعي المرءِ في الرزقِ أجملُ[2]

ولعلّ إيمان المرء بأنّ مصدر الرزق هو الله تعالى ، يستوجب عليه ألا يدعو غيره ، وأن لا يسترزق من غيره ، فكيف يطلب الرزق ممن رزقه موكول بيد الله ، مكتوب ومقدّر عليه ؟ ؛ لذلك يرى الزهّاد أنّ من يطلب الرزق من غير الله أنّه غير واثق به ، فكيف يدّعي الإيمان ، ويعلم أنّ الرزق بيد الله دون سواه ، ويدعو غيره ؟! . هذا ما تعجب منه علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — من أولئك ، واستهجن سؤال الناس الرزق دون الله سبحانه وتعالى ، فيقول :

أتطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب آمنا
وترضى بصرّافٍ وإن كان مشركًا ضمينًا ولا ترضى بربك ضامنا

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج١ ، ص٢٧٠ .

[2] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنّك إن تقرأ بما في كتابه فأصبحت منحول اليقين مباينا [1]

وليس المال هو مصدر السعادة للناس ؛ لأنّه ليس بالسعادة الحقيقية ، فكثير من النـــاس يملكون المال الكثير ، لكنهم تعساء أشقياء . والحطيئة يرى أنّ السعادة الحقيقية هي التقـوى ، وليست جمع المال ، بعد أن أدرك أنّ المال لا يساوي شيئًا ، قياسًا للتقوى والعبادة ، وهـو في البيت التالي يدعو الناس إلى نيل سعادتهم الحقيقية من مصدرها الحقيقي :

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكنّ التقيّ هو السعيدُ [2]

ويتمثل هذا الإيمان بقول كعب بن زهير الذي اطمأنت نفسه ، وقرت عينـــه إلى أنّ رزقه آتيه من عند الله ، وإنّه لا يأتي من جهده وجدّه ونشاطه ، فإن يفنَ ما لديه مـن رزق ، فإنّ الله يأتيه بغيره ؛ لأنّ ذلك من الله ، وليس منه هو أو من الناس :

وإن يفن ما عندنا فالله يرزقنا ومن سوانا ولسنا نحن نرتزقُ [3]

ولا شك أنّ هذا الإيمان ، وهذه المعتقدات تولّد لدى المسلم قناعة بما يصيبه من رزق ، ويجد بالقناعة الرضى ، ويتولد لديه نوع من الاتزان النفسي ، فلا يحزن على ما أصابه من فقر أو ضعف ، ويدرك أنّ الغنى والفقر والخير والشر كله بيد الله ، فيكتسب بقناعته عزًا وغـنىً ، وتكون قناعته رأس ماله ، فيربح الدنيا والآخرة . وبما أنّ القناعة رأس مال المؤمـــن ، فـإنّ بضاعته هي العبادة والأعمال الصالحة ، وهي خير البضاعة ، هذا ما عبر عنه علـــي بـــن أبي طالب ـــ كرم الله وجهه ـــ عندما قال :

أفادتني القناعة كل عزٍّ وأي غنىً أعزُّ من القناعة

فصيّرها لنفسك رأس مالٍ وصيّر بعدها تقوى بضاعة[4]

وينبغي الحديث عن قضية أخرى هامة أكثر الشعراء في صدر الإسلام من التطـــرق إليها ، وهي قضية تحقير الدنيا وذلّها ، والزهد فيها ، فلم يذكر القرآن الكريم الحيا الدنيـــا

---

[1] علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص٨١ .

[2] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص٥١٨ .

[3] كعب بن زهير : ديوان كعب بن زهير ، ت علي فاعور ، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م ، ص٥١ .

[4] علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالتمجيد والإجلال والاحترام ، وقد خصّ الحياة الآخرة بذلك ، ووصف الدنيا بأنّها بسيطة هيّنة ، لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، فقال في شأنها : { وَمَا الحيَاة الدُّنيا إلاَّ متَاعُ الغرُور } [1]، وقال : { المالُ والبَنونَ زينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيا والبَاقيَاتُ الصَّالحاتُ خَيرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيرٌ أَمَلاً } [2] ، فحرض سبحانه بذلك الناس على التخلي عن الدنيا ، والعزوف عنها ، فقلّ اهتمام المؤمنين بها جرّاء ذلك ، وعبروا عن ذلك بأشعارهم وأقوالهم وأفعالهم ، فالدنيا بالنسبة لهم لم تعد هدفًا بحد ذاتها ، بل هي وسيلة لغاية أسمى وأعظم قدرًا .

ولعلّ فطرة الله تعالى التي فطر الناس عليها ، ينسجم معها حبّ الدنيا ، وحبّ الغنى ، وقد يحدث صراعًا نفسيًّا لدى الإنسان جرّاء ذلك ، فقد ترغب نفسه بالعيش والبقاء ، ويدرك بعقله وفهمه لدينه أنّ الدنيا لا تستحق ذلك ، ولا قيمة لها ، بالإضافة إلى أنّ ذلك غير ممكن ، وهذه الحقيقة يعرفها العاقل بقياس عقلي ، يجد نفسه يبني ليسكن غيره ، ويجمع المال الذي ينفقه الوارثون ، وقد تكون القصور والأموال التي يجنيها المرء في الدنيا أموالا اكتسبها بطرق غير مشروعة ، أو نسي واجباته الدينية والروحية أثناء السعي لها ، فيكون بذلك قد خسر الدنيا الزائلة ، وخسر الآخرة الباقية ، ومثل هذا الصراع يعبر عنه علي بن أبي طالب بقوله :

النفس تبكي على الدّنيا وما علمتْ ... أنّ السلامة فيها تركُ ما فيها
لا دارَ للمرءِ بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموتِ بانيها[3]

ولقد تغيرت نظرة الناس لمعادلة الحياة والموت ، وتغيرت قيمة الحياة وقيمة الموت ، من خلال المفاهيم الإسلامية الجديدة ، فلم يعد الموت ذلك الشبح المخيف الذي يفرون منه ، بل أصبح عند المؤمنين معبرًا يعبرون منه إلى الجنة الموعودة التي وعدهم الله بها ، فسحقت الدنيا في نظر المجاهد ، وتعاظم الاستشهاد ، وتعاظمت الجنة ، فتمنى المجاهد بذلك ، وتمنى الشهادة لتعجّل في دخوله الجنّة ، ويخرج من الدنيا التي هي دار للمفاسد والمعاصي ، ولعلّ الزاهد

(1) سورة الحديد ، الآية ٢٠ .
(2) سورة الكهف ، الآية ٤٦ .
(3) علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتقشف في الدنيا وما فيها ، يجد خير ما يبذله في سبيل ذلك نفسه التي يضحي بها في سبيل الله ، في رياضة من رياضات العبادة الخالصة .

وخير ما نتمثل به هنا من أشعار ، ما قاله عروة بن زيد الخيل ، الذي اعتبر الجهاد أكبر همه ، وجعله هدفه الأول ، فنظر إلى الدنيا باحتقار ، وجعل يسلّي نفسه عنها حتى نسيها ، فلم تعد تعشق الكسب الوفير والكنوز التي يتهالك عليها الناس :

وقد أضحت الدنيا لديّ ذميمةً ... وسليّت عنها النفسَ حتى تسلّتِ

فلا ثروة الدنيا تريد اكتسابها ... ألا إنها عن وفرها قد تخلّتِ

وماذا أرجّي من كنوزٍ جمعتها ... وهذي المنايا شرّعًا قد أطلّتِ[1]

وهذه الدنيا غرور ، يغتر الإنسان بها ، فيظن نفسه صاحبها ، وأنّه خالد فيها ، وقد يسوقه هذا الوهم إلى التخبط وعدم الاستقامة ، والتهالك على ملذّاتها ، ما حل منها وما حرّم ، وهي التي قال الله تعالى فيها : { وَما الحياةُ الدُنيا إلاّ مَتَاع الغُرُور }[2] ؛ لذلك عبر الإمام علي عن بغضه للدنيا ، واغترار الناس بها ، واستهجانه ذلك ، واستخفافه بأهله ، بقوله :

فلم أرَ كالدنيا بها اغترّ أهلُها ... ولا كاليقينِ استأنس الدهر صاحبه[3]

ويحذر الإمام من الدنيا التي صورها بالثوب المستعار ، والذي لا بد أن يعود يومًا إلى معيره ، فالإنسان يعيش أمدًا قصيرًا في الدنيا ، ثم يعود إلى خالقه مرةً أخرى ، وهي تتقلب بالمرء ارتفاعًا وانحدارًا ، فيندثرُ ويتبدد ويزول ، والإمام علي يحذر الناس بذلك ، وينبههم إلى تقلبات الدهر وانتكاساته :

إنّما نعمة الدنيا متعةٌ ... وحياة المرءِ ثوبٌ مستعارُ

وصروفُ الدهرِ في أطباقه ... حلقة فيها ارتفاعٌ وانحدارُ

بينما الإنسان في عليائها ... إذ هوى في هوةٍ فيها فنارُ[4]

---

(1) عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص١٠٧ .

(2) سورة آل عمران : الآية ٢٠ .

(3) علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص٣١ .

(4) المصدر السابق : ص ٧٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بد لتحقير الدنيا والاستخفاف بها من تعزيز قيمة الموت ، والانتقال إلى الجنة ، لا سيما أنّ الإنسان المنتقل من الحياة الدنيا إلى الآخرة يحمل ما يدخره من الأعمال الصالحة ، التي تمكنه من الفوز بالجنة .

وأما الموت القضية الهامة التي طالما شغلت بال الناس جميعاً ولا تزال ؛ نتيجة الخوف والانشغال ، فيعود إلى أمرين : الأول ، أنّ الإنسان بطبيعته يحب الحياة ، ويكره الموت ويخشاه ، وهي الفطرة التي فطر عليها ، أما الأمر الثاني ، فهو أن المؤمن يؤمن بالبعث ، وفي البعث حساب وعقاب ، وهو الأمر الذي يجعله يحتسب الله أمامه في كل عمل يقوم به في حياته الدنيا ، فيتذكر العقاب ، إذا همّ بعمل صالح يقوم عليه ، لذلك شغل بال المؤمن بالموت ، وما بعده ، وكيف النجاة يوم الحشر ، فالموت إذن ، لم يعد راحة للميت ، لأنّه لا يترك بعد موته ، فالبعث والسؤال والحساب ينتظره ، فلا بد إذن من الإيمان والزهد والإكثار من العبادة استعداداً لذلك ، ولتحقيق النجاة ، وفي ذلك يقول الإمام :

ولو إنّا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حيّ

ولكنا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعد ذا عن كل شيء [1]

ومثل هذا الشعر يكثر على ألسنة الخلفاء وكبار الصحابة ، لما فيه من دعوة المكارم والأخلاق ، والإصلاح الاجتماعي بأسلوب أدبي تعليمي ، يقوم على النصح والإرشاد والموعظة والحكمة ، فالخلفاء والصحابة – رضوان الله عليهم – يكررون ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فنظموا بعض الأبيات الشعرية التي تدعو إلى الزهد وحسن العبادة ، وبذلك يدرك الناس جميعًا أنّ الخلفاء والصحابة يعملون ويؤمنون بهذا ، ويدعون الناس إليه ، فيكون سبيل الرشاد الذي ينير طريقهم إلى الجنة ، ومما قاله الخليفة عثمان بن عفان في هذا الشأن :

أرى الموت لا يبقي عزيزًا و لم يدع ... لعادٍ ملاذًا في البلادِ ومربعا[2]

---

[1] المصدر السابق ، ص١٣٩ .

[2] ابن كثير أبو الفداء الحافظ : البداية والنهاية ، دار الرشيد – حلب ، دت ، ج٧ ، ص١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا الاستشهاد بالأمم السابقة التي بادت واندثرت ، فهي قضية لا تقل أهمية عن قضية الموت ، وقضية ذم الدنيا والاستخفاف بها . فتحقير الدنيا كان بالحديث عن قضية الموت ، وقضية الموت نستشهد عليها بالأمم السابقة التي كانت ذات سيادة وسلطان .

والأمم السابقة خير نموذج ومثال يتعظ به من يتشبث بالأرض متمسكًا بالحياة الدنيا ، مقدسًا لها ، بالإضافة إلى أنّ الزاهد العابد لا بد له من دليل مادي محسوس ، يسوقه لمن يحدثهم عن سخف الدنيا وتقلبها وغدرها ، وهذه القضية قديمة منذ العصر الجاهلي ؛ فالشعراء الجاهليون استشهدوا بقوم عاد وثمود وسبأ وسد مأرب وغيرهم .

ولعلّه من الطبيعي أن يسيطر شعور خاص على الإنسان إذا نظر إلى بيت مهجور تركه أهله مرغمين ، فساقهم الموت إلى القبور ، فيقشعر بدنه ، ويرتجف قلبه خيفةً ، فيتجه لله بالدعاء والعبادة ، لذلك اتعظ الأسود بن يعفر بالموت ، وآمن بذلك واستدل عليه بالأمم السابقة واستشهد بها :

ماذا أؤمل بعد آل محرّقٍ تركوا منازلهم وبعد إيادِ[1]

وقال :

أباد الأولين وكل قرنٍ وعادًا مثلما بادت ثمودُ

ولا ينجى من الآجال أرضٌ يحلُّ بها ولا القصر المشيدُ[2]

ويبدو أنّ للقصص القرآني أثرًا واضحًا في مثل هذه الأشعار ، بالإضافة إلى ما تناقلوه وتأثروا به من أشعار الجاهليين الذين تحدثوا عن هذه الأمم التي بادت واندثرت .

والحقيقة أنّ الزهّاد والنسّاك فهموا في هذه الفترة القيمة الحقيقية للحياة الدنيا فهمًا صحيحًا منسجمًا مع القرآن الكريم ، فلم يبالغوا في مقت الدنيا والعزوف المطلق عنها ، بل عملوا بما أمر الله تعالى ورسوله ، ويمكن أن نصف زهّاد المسلمين بأنّهم " عمليين ومعتدلين ؛ أي أنّهم كانوا يعنون بأمور معاشهم وواجباتهم الاجتماعية ، وكانوا يكافحون كل مشكلة ،

---

(1) الضبي المفضل : المفضليات ، ت عبد السلام هارون ، مطبعة المعارف ـــ مصر ، ١٩٦٧م ، ج٢ ، ص٦٦ .

(2) عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجتهدون لإيجاد أحوال أفضل في المجتمع الإسلامي " [1]، وكان الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ يرفض كل تطيّر أو تجاوز في العبادة . فقد روي عنه أنّه عندما سمع بمغالاة بعض المسلمين في العبادة ، جمع الناس ، وخطب فيهم ؛ ليهدئ من روعهم وغلوّهم ، فقال : (وأمّا أنا فأصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) [2].

ومجمل القول أنّ حركة الزهد في بداية العصر الإسلامي ، لم تكن من الحركات الدينية ، ولا مذهبًا من المذاهب ، ولا نظامًا من النظم الاجتماعية ، بل كانت نزعة فردية ، مصدرها الدين وحده ، ممثلا بالقرآن الكريم والسنة النبوية ؛ لذلك نجد أنّ حركة الزهد في عهد الرسول عليه السلام والخليفتين من بعده ـــ أبي بكر وعمر ـــ سارت على النمط الذي رسمه الإسلام ، وهو العمل على تحقيق السعادة في الدارين ، وخلق الشخصية المتوازنة الصالحة للحياتين ، فقد استطاع الإسلام في هذه الفترة إلى حد بعيد أن يحقق المثل الأعلى في بناء الشخصية المسلمة المتكاملة ، فتجلى ذلك في كثير من الصحابة ، ذلك الطراز العامل بنجاح لدنياه وأخرته .

لكنّ مقتل عثمان الخليفة الثالث ، ترك آثارًا خطيرة في نفوس المسلمين في شتى مجالات حياتهم ، والذي كان بداية فتنه كبيرة ، فآثر بعض الناس على خلفيات أحداثها الانقطاع عن المشاركة في الحياة العامة ، والاتجاه إلى العبادة ؛ وذلك صوناً لدينهم وهروباً من الأحداث السياسية ، التي آنذاك ، مما زاد من الزهّاد والنسّاك ، ويذكر بعض الباحثين أنّه بين سنة (٤٠ هـ) ـــ (١١٠هـ) زاد عدد النسّاك والزهّاد الذين انتشروا في البصرة والكوفة والمدينة ؛ لتهيبهم من نتائج هذه الحروب ، وحبهم للجنة ، وكرههم للنار [3].

---

(١) قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ـــ مصر ، ١٩٧٢م ، ص٣٣ .

(٢) البخاري : صحيح البخاري ، ج٩ ، ص١٠٤ .

(٣) مجاهد مصطفى بهجت : الزهد الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـــ بغداد ، ط١ ، ١٩٨٢م ، ص١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشهر من نظم شعرًا في الزهد في عصر صدر الإسلام

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ـــ

الإمام علي بن أبي طالب ـــ كرم الله وجهه ـــ رابع الخلفاء الراشدين ، يعد مدرسة في الزهد والتقوى والعبادة والنسك ، وكان زهده مبدأ حياة ووجود ، وذلك مرتبط بعوامل تعود إلى النشأة والتكوين النفسي والثقافي ، فكانت حياته إسلامية صحيحة ، تربى بين أحضان الدعوة ، وتتلمذ على يدي الزاهد الأول في الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان من الطبيعي أن يحتذي حذوه ، وينهل من سنته ، ويتأثر بمضامين الإسلام ودعوته التي عايشها ؛ مما جعله يزهد ، ويدعو إلى الزهد في الحياة ، ويورثه لمن بعده .

أمّا بالنسبة للشعر ، فللإمام علي ديوان يقارب " في كمه ما نقل لنا من شعر حسان ابن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن زهير جميعًا ، وهم الشعراء المشهود لهم بالشاعرية "[1] . وهي أشعار تنسجم مع ما يتمتع به من صفات رفيعة ، وخلق قويم ، وعبادة وتقوى ، وسلوك إيماني واضح ، إذ تميزت حياته بالزهد في الدنيا والترفع عنها ، وهي التي أقبلت عليه وخضعت وانقادت له ،فقد قضت به الحاجة إلى بيع سيفه ؛ ليشتري إزارًا يلبسه .

ويرى العقّاد في العبقرية أنّه لم " يُعرف أحدٌ من الخلفاء أزهد منه في لذة الدنيا ، أو سيب دولة ، وكان هو أمير المؤمنين ، يأكل الشعير ، وتطحنه امرأته بيديها "[2]، وهو صاحب آراء في التصوف والشريعة والأخلاق ، سبقت جميع الآراء في الثقافة الإسلامية [3]، ويذكر العقاد كذلك أنّه يوجد كثير من النماذج التي تنسب للإمام علي ، يصح أن تحسب أصلا للعلم الإلهي ولأسرار التصوف في صدر الإسلام قبل اشتغال المسمين بفلسفة اليونان

---

[1] جابر قمحية : أدب الخلفاء الراشدين ، دار الكتب الإسلامية ، دت ، ص٣٩٣ .

[2] عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام علي ، ط٣ ، دت ، ص٢٣ .

[3] المصدر السابق ، ص٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحكمة الأمم الأجنبية [1]، ولعلّ تعليل ما وقع من الشكّ في نسبة بعض الكلمات إليه يعود " لأنّها تجمعت بعد عصره بزمن طويل ، وامتزج بها ما لا بد أن يمازجها من علوم القرن الثالث ، وما بعده "[2].

ولعلّ أوجز ما يقال في زهد الإمام أنّه كان عابدًا كثير التقشّف ، يأكل الخبز اليابس ، ويلبس الرداء الخفيف المرقع ، وأنّه أقلّ رعاياه نصيبًا من الدنيا عندما مات ، وهو بذلك أسس مدرسة زهدية ، تمثلت في أفعاله وتقشفه وتقالبه عن الحياة الدنيا ، وفي أقواله فيما أثر عنه من خطب وأشعار تأثر بها وسار على نهجها من زهد بعده وتقشف.[3]

ويبرز في أشعار الزهد والتدين التي تنسب للإمام علي عدة قضايا ومعانٍ تناولها وألحّ عليها في هذه الأشعار ، وهو بذلك يستأنس بنور الإسلام وهدي القرآن وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن أبرز هذه القضايا قضية الحياة الدنيا ، واصفًا إياها في الميزان مع الحياة الآخرة ، لا سيما وقد أظهر الإسلام الفرق بينهما ، ودعا إلى الثانية ، عدا عن الأولى ، ورأى في الأولى الخيبة والخديعة والغرور ، وفي الآخرة لمن يحسن إيمانه بالله الخير الوفير والعزة والكرامة والخلود ، فأدرك أنّ الدنيا زائلة ، وأنّ الآخرة خير وأبقى ، فأعلن في نفسه ، ولمن حوله ، بضرورة الإقلاع عن الدنيا ؛ لأنّها زائفة غرّارة ، لا تبقي على أحد ، ولا يدوم عليها مخلوق ، ولو أراد الله أن يديم أحدًا ، لجعل ذلك الخلود لسيدنا محمد عليه السلام ، يدعو الناس للخير والإيمان والعمل الصالح :

تحرّر من الدنيا فإنّ فناءَها ... محلُّ فناءٍ لا محلُّ بقاءِ
فصفوتها ممزوجة بكدرةٍ ... وراحتُها مقرونةٌ بعناءِ[3]

فهو يستهجن من الذين يتهالكون عليها ، ويبذلون الغالي والنفيس في كسب المال ، ناسين أو متناسين واجباتهم الدينية ؛ لذلك كرر الإمام استخدام لفظة (الغرور بالدنيا) في

---

[1] العقاد : عبقرية الإمام علي ، ص٣٨ .

[2] المصدر السابق ، ص٣٨ .

[3] ابن أبي طالب علي : ديوانه ، ص٨.

[4] السابق ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواضع عدة ، مستأنسًا باستخدام القرآن الكريم لها ؛ للدلالة على قيمتها الرخيصة ، وللدلالة على الاستخفاف بها واحتقارها :

فلم أرَ كالدنيا بها اغترَّ أهلُها ولا كاليقينِ استأنس الدهر صاحبُهْ[1]

ويقول :

وغرور دنياك التي تسعى بها دارٌ حقيقتُها متاعٌ يذهبُ

تبًّا لدارٍ لا يدومُ نعيمُها ومشيدها عمّا قليلٍ ينهبُ[2]

ويصور الدنيا بموائها وضعفها وسرعة زوالها ببيت العنكبوت ، وهو يستلهم بذلك هدي القرآن الكريم في أنّ أوهن البيوت بيت العنكبوت ؛ لذلك ينصح الإمام الناس ألا يتهالكوا عليها ؛ لأنّ الإنسان يكفيه منها قوت يومه ، وما عدا ذلك سيتركه ويموت :

إنّما الدنيا فناءٌ ليس للدنيا ثبوتْ

إنّما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوتْ

ولقد يكفيك منها أيّها الطالب قوتْ

ولعمري عن قليلٍ كل من فيها يموتْ[3]

وفي موضع آخر ، يعبر بصور متلاحقة مستخدمًا التشبيه ، إذ صور الدنيا بأربعة أشياء ، تعرف بقصرها ، وزيفها ، وعدم ديمومتها ، فقد شبهها بالظل الزائل ، أو بالضيف الذي لا يدوم الإقامة ، أو بالحلم الذي سرعان ما يفيق النائم منه ، فيدرك أنّه مجرد طيف رآه في نومه ، أو بالبرق الخاطف الذي يكاد زمن وجوده لا يذكر ، ولعلّ استخدامه عبارات (ظل زائل ، بات ليلا فارتحل ، يراه نائم ، برق لاح) يدل على مدى إلحاح الإمام في احتقار الدنيا ، ورغبته في إثارة الفزع والحيطة والحذر في نفوس المتهالكين عليها :

إنّما الدنيا كظلٍ زائلٍ أو كطيفٍ بات ليلاً فارتحلْ

---

[1] المصدر السابق ، ص٣٠ .

[2] المصدر السابق ، ص٣٣ .

[3] المصدر السابق ، ص٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو كطيفٍ يراه نائمٌ　　　　أو كبرقٍ لاح في أفق الأفلْ[1]

ويصور نفسية الإنسان التي تحب الدنيا ، وتقبل عليها ، وتبكي عند فراقها ، وهي تعلم أنّ السلامة الحقيقية هي ترك ما فيها ، والعزوف عنها ، وهي ليست دار مستقر ، إنّما دار المستقرّ التي يبنيها المرء بالعمل الصالح ، ويعد لها بالعبادة والتقوى ، فينأى بنفسه عن الاستقرار في الجحيم ، ويستقر بدار النعيم ، وطالما أنّ الدنيا هذه مزيتها ، فإنّ من شقاء الإنسان وتعاسته ، أن يبتاع هذه الدنيا على ما فيها من كثرة السيئات ، بدينه الذي فيه السعادة كلها ، والخير كله ؛ لأنّه فيه نجاة الإنسان من العذاب :

النفسُ تبكي على الدنيا وقد علمت　　　　أنّ السلامةَ فيها تركُ ما فيها

فإن بناها بخيرٍ طابَ مسكنُها　　　　وإن بناها بشرٍّ خاب بانيها[2]

وليست قضية تحقير الدنيا وذمها هي القضية الوحيدة التي احتلت حيزًا واسعًا في شعره الديني الزاهد ، فقد كان لبعض القضايا الأخرى حضور بارز ، كالإيمان بالقضاء والقدر ، والتوكل على الله تعالى ، وهي من الموضوعات التي غدت حكمًا أساسيًا من الأحكام التي تناولها شعراء الزهد فيما بعد ، وهذه الموضوعات تستند في ألفاظها ومعانيها إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، والتي تدعو إلى الإيمان بها ، والعمل على تطبيقها .

والرزق يدخل في إطار الإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله ، فمن توكل على الله فهو حسبه ، وسعي المرء خلف رزقه يحتاج إلى الإيمان المطلق بالله تعالى ، وقضاءه وقدره ، وأن يتوكل في سعيه ، فالرزق موكول لله تعالى ، وليس للبشر مقدرة في تحديده بالزيادة أو النقصان ، لذلك وعظ الإمام الناس الذين يجمعون المال ، بأن ما يجمعونه ليس لهم بل لغيرهم من الورثة الذين يتقاسمون ما يجمع ، وهو لا يدعو إلى عدم السعي ولكن دون أن يكون ذلك منقصا لعبادته وتقواه :

وكم ساعٍ ليثري لم ينله ٥٤٢٨٣٥　　وآخر ما سعى لحلق الثراء

---

[1] المصدر السابق ، ص١٠١ .

[2] المصدر السابق ، ص١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وساعٍ يجمع الأموال جمعاً لـيورثها أعـاديه شـقاء [1]

ويقول في القضاء والقدر :

إذا عقد القضاء عليك أمرا فلـيس عليـه إلا القـضاء[2]

فالرزق ذلك الأمر الذي طالما شغل بال الناس جميعاً في كل زمان ومكان ، فما من مخلوق إلا ويسعى لينال رزقه ويجتهد في تحسينه وزيادته ، فمن الناس من يشرّق خلف رزقه ويغرب ، لكنه لا ينال إلا القليل ، ومن الناس من ينال الرزق الوفير ولا يبذل في شأنه إلا السعي القليل ، فذلك ما قدر له ، فالقضية إذن موكولة إلى الله تعالى ، فهو مقسم الأرزاق ، فلا ينال المرء إلا ما كتب له ، وقدّر عليه ، فهي حظ الإنسان وقسمته كما قسمها الله تعالى له :

ولكنّما الأرزاقُ حظٌّ وقسمةٌ بفضلِ مليكٍ لا بحيلةِ طالبِ[3]

والقناعة من الزهد ، وهي رأس مال المؤمن الذي يتجر به ، والذي يجعله يرضى بما كتب له من رزق ، فلا ينافس غيره في رزقه أو يحسده :

أفدتني القناعة كـلَّ عـزٍّ وهل عزٌّ أعزُّ من القناعـةْ

فصيّرها لنفسِك رأسَ مالٍ وصيّرْ بعدها التقوى بضاعةْ

تحزْ ربحًا وتغنى عن بخيـلٍ وتنعم في الجنانِ بصبرِ ساعةْ[4]

وأشعاره في هذا المجال كثيرة ، يدعو في مجملها إلى عدم الإلحاح في طلب الرزق ، بل الاعتدال فيه ، ولا يكون لطلب الرزق مدعاة لعدم القيام بالواجبات الدينية والعبادة على أكمل وجه ، ويدعو إلى الإيمان المطلق بأنّ الرزق مكتوب موكول لله تعالى ، فلا ينال المرء إلا ما كتب له ، فهو بالإضافة إلى ذلك يدعو إلى عدم جمع المال ؛ لأنّ الإنسان لا يدري لمن

---

[1] المصدر السابق ، ص٨ .

[2] المصدر السابق ، ص٨ .

[3] المصدر السابق ، ص١٨ .

[4] المصدر السابق ، ص٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجمع بعد موته ، ويقرر أنّ الغني الحقيقي هو صاحب القناعة ، بينما الفقير الحقيقي هو الذي يطمع في المال وجمعه [1].

وتنسجم الدعوة إلى العبادة والتقوى مع الدعوة إلى الإيمان بالقضاء والقدر ، والتوكل على الله تعالى ؛ فالتوكل يستند على العبادة والإيمان الصادق بالله تعالى ؛ لذلك زخر ديوانه بالدعوة إلى الإيمان والإحسان فيه ؛ لأنّه يرى أنّ التقوى هي خير العمل ، وخير ما يدخر المرء في دنياه لآخرته ، والتقوى هي أساس الزهد بالدنيا والسعي للآخرة ، والتوكل على الله ، والأخذ بالقضاء والقدر . ويروى أنّه أتاه رجل فقال : يا علي أخبرني ما وجب وأوجب ، وعجيب وأعجب ، وصعب وأصعب ، وقريب وأقرب ، فقال :

فرضٌ على الناسِ أنْ يتوبوا ... لكنّ تركَ الذنوبَ أوجبْ
والدهرُ في صرفِهِ عجيبٌ ... وغفلةُ الناسِ فيه أعجبْ
والصبرُ في النائباتِ صعبٌ ... لكنّ فوتَ الثوابِ أصعبْ
وكلُّ ما يرتجى قريبٌ ... والموتُ من كلِّ ذاكَ أقربْ [2]

النابغة الجعديّ :

اسمه حبّان بن قيس ، من بني جعدة العامريين ، ويكنى بأبي ليلى ، وأمه اسمها فاخرة بنت عمرو بن جابر بن شحنة الأسدي [3].

أمّا سبب إطلاق لقب (النابغة) عليه فهو قوله الشعر في الجاهلية ، ثم عزوفه عن ذلك دهرًا ، ثمّ نبوغه في الشعر في الإسلام [4]. وجاء في كتاب (العصر الإسلامي) لشوقي ضيف ، انّه ظلّ ثلاثين عامًا في الجاهلية لا ينطق الشعر ، ثمّ تفجّر على لسانه ، فسمي النابغة لنبوغه فيه بآخره ، ويقال : إنّ نبوغه فيه كان في الإسلام [5].

---

(1) ينظر الديوان ، ص١٦ .
(2) المصدر السابق ، ص١٦ .
(3) الأصفهاني : الأغاني ، ج٥ ، ص١ .
(4) المصدر السابق ، ج٥ ، ص١ .
(5) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي ، ص١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعدّ النابغة الجعدي من المعمرين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام ، ويروى أنّه أقدم من النابغة الذبياني ؛ إذ عاصر المنذر بن المحرق قبل النعمان بن المنذر [(١)].

" والنابغة الجعدي في الجاهلية مثل لبيد ، يتغنى بمفاخر قومه وانتصاراتهم في حروبهم ، ويهجو خصومهم ، وخاصة بني أسد ، الذين قتلوا أخًا له في بعض حروبهم مع قبيلته " [(٢)].

وفي الإسلام ، وفد على الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في السنة التاسعة للهجرة مع قومه ، ويُظنّ انّه لم يرجع معهم ، بل أقام في المدينة مهاجرًا ، حتى إذا كانت الفتوح ، خرج مع العرب ميممًا نحو الشرق والفرس مجاهدًا في سبيل الله .

ومن المؤكد أنّ النابغة كان من الشعراء الذين استضاءوا بالإسلام وتعاليمه الروحية ، فقد جاهد في سبيل الله ، وهو يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ، فكان طبيعيًا ان يستلهمه في شعره ، وهو بذلك خير دليل على اثر الإسلام في الشعراء المخضرمين [(٣)].

وتميزت أشعاره الإسلامية بما " يصح أن يطلق عليها اسم (المقدّمات الدينية) ، وهي مقدمات تدور معانيها حول العبرة من الدهر وصروفه ، وذمّ الدنيا الخادعة ، ويدعو فيها الشاعر إلى الاستسلام لقضاء الله " [(٤)].

أمّا وفاته فيعتقد أنّها كانت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري اعتمادًا على ما رواه أبو الفرج الأصفهاني ، من أنّ النابغة قدم على عبد الله بن الزبير بمكة ، وقد دعا لنفسه ، وعبد الله هذا بويع بالخلافة سنة (٦٤هـ) ، عقب موت يزيد بن معاوية [(٥)].

يُعدّ النابغة الجعدي من " ممثلي البدايات الأولى للشعراء الزهّاد المتخصصين لهذا الفن الجديد من الشعر العربي منذ وقت مبكر " [(٦)] ، وذلك اعتمادًا على ما ورد في ديوانه من أشعار ، تنمّ عن روح إيمانية ، ودعوة صادقة للعبادة والتقوى . فقد وجدت المواعظ والدعوة

---

(١) ينظر : ديوان النابغة الجعدي، ل

(٢) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ــ العصر الإسلامي ،ص ١٠١

(٣) المصدر السابق ، ص١٠١

(٤) محمد عويس : الحكمة في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، ١٩٧٩م ، ص٢٧

(٥) ينظر : ديوانه ، ص٤٥ .

(٦) مي يوسف خليف : التيار الإسلامي في القصيدة الأموية ، ص٥٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى النسك ، وإخلاص الطاعة لله ، حتى تحولت بعض قصائده إلى مواعظ دينية كاملة ؛ فقد دعا الشاعر للأخذ بالقضاء والقدر والرضا بهما ؛ لأنهما من ركائز الإيمان بالله ، وهما مما يخفف عنه المصاب ، ويدعو للصبر وعدم الجزع والحزن على ما فات ، يقول :

ألم تعلما أنّ انصرافًا مسرعًا	لسيرٍ أحقُّ اليومَ من أنْ تقصّرا
ولا تسألانِ إن الحياةُ قصيرةٌ	فطيرا لروعان الحوادثِ أو قرا
وإن جاء أمرٌ لا تطيقان دفعه	فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
تَميج اللحاء والملامة ثمّ ما	تقرّب شيئًا غير ما كان قدّرا[1]

فقد حملت أبياته ما حملته أشعار الزهد فيما بعد ، إذ أشار إلى أنّ الحياة قصيرة ذميمة لا تستحق التهالك عليها ، وأشار إلى القضاء والقدر ، وضرورة الإيمان بهما في البيتين الثالث والرابع .

ويسجل النابغة الجعدي إيمانه بالدين الإسلامي الذي جاء به الرسول الكريم ، ويخشع لله تعالى ، ويتضرع له ، ويشكره على نعمة الإسلام ، وهو حمد لا نحسّ فيه نفاقًا ولا رياءً ، بل لا يضعف من الطبيعة الفنية للشعر . ومن أبياته المشهورة البيت التالي الذي يحمد الله فيه ، أنّه لم يأته أجله قبل أن يلبس من الإسلام سربالا يمحو خطاياه ، ويغسل آثامه وذنوبه ، ويركب في فلك الناجين من متاهات الكفر والضلال :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي	حتى اكتسيْتُ من الإسلامِ سربالا[2]

ولعلّ أشهر قصائده التي تحولت إلى مواعظ دينية كاملة ، والتي يحمد الله فيها بما هو أهله ، مقرًّا بإيمانه به ، وبوحدانيته تعالى ، وأنّ من لم يقرّ بذلك فقد ظلم نفسه ، قصيدته التي يقول في مطلعها :

الحمدُ لله لا شريكَ لـه	من لم يَقُلْها فنفسَهُ ظَلَمَا
المولجُ الليلَ في النهارِ وفي	الليلِ نهارًا يفرّجُ الظلما[3]

---

(1) ينظر : ديوان النابغة الجعدي ، ص٣٥ .

(2) المصدر السابق ، ص١٠١ .

(3) المصدر السابق ، ص١٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشكّل هذه المقدمات الدينية " طابعًا دينيًا ، يفخر فيه الشاعر بنعمة الإسلام ، ويحمد الله على هدايته ، وهذا لونٌ جديد ، يشكل ظاهرة فنية استخلصت من العلاقة الموضوعية بين الحكمة والدين " ، ثم يذكر بعد هذه المقدمة العديد من المعجزات الربانية التي لا تبقي مجالا للشكّ لمن سوّلت له نفسه ، ثم يعظ الناس بضرورة الإيمان الخالص بالله تعالى ، والإكثار من الأعمال الصالحة ، فالله سيجمعهم يوم الحشر ، ويحاسبهم على ما جنت أيديهم ، فيقول لهم : ائتمروا الآن في حياتكم الدنيا ، واعتصموا من دون الله في السماء والأرض ؛ لأنّ الله رغم كل ذلك سيجمعكم ، ولا ينجو إلا من يعتصم بحبله ، ويؤمن به ، ويحسن إيمانه :

تمّت لا بدَّ انْ سيجمعكم ... والله جهرًا شهادةً قسما

فائتمروا الآن ما بدا لكمُ ... واعتصموا إن وجدتمُ عصما

في هذه الأرضِ والسماءِ ولا ... عصمةً منه إلا لمن رحما [1]

وينتقلُ بعد ذلك مخاطبًا العقول ، مشيرًا إلى أمور محسوسة يعرفونها ، فيستعرض الأمم السابقة القوية ذات الحضارات الجبارة ، ويتساءل عن مصيرها ، وكيف بادت وانتهت ؟! ويذكر فارس التي أصبح سادالها عبيدًا عندكم يرعون شاءكم ، وكأنّ ملكهم لم يكن إلا حلما يراه النائم ، حتى إذا أفاق من نومه لم يجد شيئًا :

يا ايّها الناسُ هل ترونَ إلى ... فارسَ بادَتْ وخدُّها رَغِمَا

أمسَوا عبيدًا يَرْعَوْنَ شاءَكُمُ ... كأنّما كانَ مُلْكُهُمْ حُلُما

أو سبأُ الحاضرينَ مأربَ إذْ ... يَبْنونَ مِن دونِ سَيْلِه العَرِمَا

فمُزّقوا في البلاد واعترفوا ... الهونَ وذاقوا البأساءَ والعدما

وَبدّلوا السِّدْرَ والأراكَ بِهِ ... الخَمْطُ وأضحى البُنْيانُ مُنهَدِمَا [2]

وكما تميز شعر النابغة الجعدي بأنّه يتحول في بعض أبياته إلى واعظ يعظ الناس بما استخلص من خطرات حكيمة مما استلهمه من الدين الجديد من مثاليات وخلق قويم ، فقد تميز أيضًا بالاعتراف بالنوب والعودة لله تعالى والتوبة له ، فقد ناجى الله معترفًا بذنوبه التي

---

[1] المصدر السابق ، ص١٣٤ .

[2] ينظر : ديوان النابغة الجعدي ، ص١٣٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اقترفها ، داعيًا إياه أن يغفرها ، معلنًا إيمانه وتقواه وخوفه من الله ، وتمثل هـــذه الأشـــعار " الحكمة الدينية الخالصة ، والتي تحولت فيما بعد إلى شعر الزهد ، ثم إلى شعر التصوف ، فـهي من مظاهر الشعر الديني من الناحية الموضوعية " [1]. يقول في مناجاة الله سبحانه وتعالى :

يا مالكَ الأرضِ والسماءِ ومن ... يفـــرق من الله لا يخف أثما

إنّي امرؤٌ قد ظلمتُ نفسي وإلا ... تعـــفُ عني أغـــلا دما كثما

اطرح بالكافرين في الدرك الـــ ... أسفلِ يا ربِّ اصطلي الصرما[2]

ويبدو أنّ الشاعر تخيّر لهذه القضية " قافية ميمية مطلقة ، وهو بهذا الروي الشـــفهي المطلق يقترب من الخطيب الذي يمد من نهاية مقاطع كلماته ؛ ليوفر نوعًا من التأثير الصـــوتي والنفسي على مشاعر السامعين " [3].

ويقف الشاعر عند صراع النفس الإنسانية وحبها للحياة ، فيرى انّ حـــب الحيـــاة والاستمرار فيها طبع في الإنسان خلق عليه ، وجاءت فطرته به ، فالمرء يكبر ، وتكبر معـــه خصلتان : حب الدنيا وحب المال ، لكنّه يرى أنّ طول عيش المرء يضرّه ؛ إذ تفنى بشاشـــته وحيويته وشبابه ، ولا يبقى بعد حلو العيش في ربيع العمر إلا مرّه في خريفه عند الكبر ، فقد تسوء الأيام حتى لا يرى شيئًا جميلاً يسرّه ، وهذه موعظة يقدّمها الشاعر للناس ؛ ليعملـوا في قومهم لضعفهم ، ويدّخروا ليوم حشرهم ، فلا يعجبهم طول العمر ، ولا تغرّهم الدنيـــا ، ولا يتهالكون عليها :

المرءُ يرغبُ في الحياةِ وطولُ عيشٍ قد يضرّه

تفنى بشاشتُهُ ويبقى بعد حلوِ العيشِ مـــرُّه

وتسوؤه الأيّامُ حتى ما يرى شيئًـــا يســـرُّه

كـــم شامتٍ بي إن هلكْتُ وقائلٍ : للهِ درُّه[4]

---

[1] المصدر السابق ، ص١٣٥ .

[2] المصدر السابق ، ص٣٥ .

[3] محمد عويس : الحكمة في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، ص٢٧٦ .

[4] ينظر : ديوان النابغة الجعدي ، ص١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشير صاحب الخزانة أنّ النابغة الجعدي قال هذه الأبيات ، ثمّ دخل بيته ، ولم يخرج منه حتى مات [1].

ومن جميل قوله في التقوى والإصرار عليها ، وتخوفه من النار :

أقيمَ على التَّقْوَى وأَرْضَى بِفعلِها وكنْتُ من النارِ المَخُوفَةِ أَوْجَرا [2]

ومن الظواهر التي تبرز في شعر النابغة الديني " ما نراه من استخلاص خطرات فلسفية حكمية من الفتن الدينية الدامية التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، ووقائع الحروب الأهلية في صفّينَ وغيرها ، يقول في تقلبات حوادث الدهر ، وأنّ الخير لا يدوم لإنسان :

ولا تأمنوا الدهرَ الخؤونَ فإنّه على كلِّ حالٍ بالورى يتقلّبُ [3]

---

(1) البغدادي : خزانة الأدب ، ج١ ، ص٥١٤ .

(2) ينظر : ديوان النابغة الجعدي ، ص٧٤ .

(3) محمد عويس : الحكمة في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، ص٢٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

١- عوامل الزهد في العصر الاموي ٤٤-٥٨

٢- موضوعات الزهد في العصر الاموي ٥٩-١٠٢

- تحقير الدنيا ٥٩- ٧٧
- التوكل عل الله ٧٧- ٨٢
- التذكير بالاخرة ٨٢ - ٨٨
- الدعوة الى التقوى والعبادة ٨٨ - ٩٥
- الاتعاظ بالقبور والاقوام السابقة ٩٥ - ١٠١

٣- اشهر شعراء الزهد في العصر الاموي: ١٠٢ - ١١٦

- سابق البربري ١٠٢ - ١٠٩
- ابو الاسود الدؤلي ١٠٩ - ١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عوامل الزهد في العصر الأموي :

تسارعت التطورات والتغيرات في المجتمع الإسلامي بعد مجيء الإسلام ، واطّردت التقلبات السياسية والأحداث الجسام ؛ مما أحدث تغيرات كثيرة في القناعات والفلسفات ، وكان الزهد من بين هذه القناعات التي خضعت لدوافع وعوامل عدة ، منها :

أولاً : العامل الديني :

يدعو القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته إلى الزهد منهجًا للحياة الدنيا ؛ إذ يدعو للمثالية الروحية والتوكل على الله ، وبغض للنفوس الدنيا الزائلة وحطامها ، فكان لهذه الآيات أثرها البالغ في إنشاء جيل الصفوة من الزهّاد ، وهم الطبقة الأولى في جيل الصحابة ، فالقرآن الكريم النظام الدقيق والمنهج الكامل لحياة الإنسان ، يحقق السعادة في الدنيا ، ويبلغ الجنة في الآخرة ، وهذا الذي من أجله أُنزل القرآن ؛ لذلك انصرف الصحابة والتابعون إلى الاعتناء به ، فقاموا على حفظه ودراسته وتطبيق ما فيه ، والآيات التي تدعو إلى تزكية النفس وتقويمها منتشرة بكثرة ، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ }[1] ، وقوله تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ }[2] ، وقوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[3] وقوله تعالى : { كُونُوا رَبَّانِيِّينَ }[4] ، وقوله تعالى : { فَأَعْرِضْ عَمَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا }[5] .

هذه الآيات وغيرها " هي غاية نزول الوحي ، وهدف الرسالة ، وخاتمة مراد الله في شرائعه ، فالمسلم الذي يصلي ويصوم ، وليس له نفس مزكاة ، ولا يملك قلباً ذاكراً ، وقد

---

(1) سورة الحديد ، الآية ١٦ .

(2) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

(3) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

(4) سورة آل عمران ، الآية ٧٩

(5) سورة النجم ، الآية ٢٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعطى نفسه هواها ، و لم يجاهد في الحق ، وما عرف الزهد ولا التواضع ولا الإخلاص ، وما عرف الأنس بالله ، وهو مسلم صورة لا معنى ، ظاهراً لا حقيقة "[1] .

ويمتد التأثر القرآني على التابعين ثم على تابعيهم ، فأخبار الزهاد كثيرة ، وهي تمثل مواقف الانفعال الناتجة عن التأمل في الكتاب والسنة النبوية ، فقد روي أن الحسن البصري كان يتحدث عن النار كأنه يراها ، وأن بعضهم كان يغشى عليه عند قراءة بعض الآيات الكريمة[2] .

وبذلك نجد أن دعوة القرآن الكريم تقوم على الموازنة الدقيقة بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان ، إذ وضّح أن الحياة الدنيا خادعة زائفة متقلبة ملونة ، وحذّر الناس منها ، فقال : { إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا }[3] ؛ لذلك دعاهم إلى عدم الانشغال بها ؛ لأنّها مجرد دار عمل وامتحان .كما وضحّ صورة الجنة المشرقة بنعيمها ورغّبهم فيها ، وجعلها جزاء الصالحين ، وصوّر النار وخوّفهم منها ، وبغّضها لهم ، فهي لوّاحة للبشر ، لا تبقي ولا تذر .

وكما القرآن كانت السنة النبوية ، وهي التطبيق العملي للآيات الكريمة فكان عليه السلام قدوة للصحابة والتابعين ، وكان كما وصفته عائشة ــ رضي الله عنها ــ قائلة " كان خلقه القرآن " فكانت حياته عليه السلام ، بعيدة عن الغنى والرخاء ، إذ ترك الترف والإسراف " وقد شهده عمر ــ رضي الله عنه ــ يضطجع على حصير أثّر في جنبه ، فعرض عليه أن يتخذ غطاء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ما أنا والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) "[4].

وتبين الأحاديث الشريفة ضآلة الدنيا وزيفها وتفاهتها ، فهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، يقول عليه السلام : (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ ،

---

[1] محمد شيخاني : التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين ، دار قتيبة ، ط٢ ، ١٩٩٥م ، ص٢٩ .

[2] مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، ص١٤٤ .

[3] سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

[4] محمد فؤاد عبد الباقي : سنن ابن ماجة ، المجلد الثاني ، ص١٣٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلينظر بم يرجع)[1]، سأل رجل رسول الله عليه السلام : دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس ، فقال الرسول عليه السلام : (ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبوك)[2].

لذلك ، عكف المؤمنون على عبادة الله وطاعته بتجربة روحية صافية ، لا اهتمام فيها بالحياة المادية ، فمنذ مجلس الحسن البصري الذي كان يتردد عليه العبّاد والنسّاك ، اشتدت الحركة المضادة لتيار المجون ، فظهر من الزهّاد والمتنسّكين من تجرّد لله تعالى ، وهجر الدنيا بما فيها[3].

ولعلّ حياة الصحابة كان لها أثرها الواضح في تحريك التابعين للزهد ، فقد وجدوا أنفسهم مقصّرين عن الصحابة الذين شاركوا في بدر ، وبشروا بالجنة ، فليس أقل من الزهد يسدوا به بعض ما يشعرون به من تقصير في واجبهم الديني[4]. فاتصفوا بطابعهم الديني الملتزم ، فهم يتلون القرآن الكريم آناء الليل ، وأطراف النهار ، ويستمعون لأحاديث الرسول عليه السلام ويستعدون للحياة الآخرة ، وانقطع بعضهم عن الناس في مناطق نائية ، حذراً من الوقوع في المعاصي ، وكان أوسي القرني يقول : " إن الموت لم يبق للمؤمن فرحاً يا أخا مراد ، وإن معرفة المؤمن بحقوق الله لم تبق له فضّة ً ولا ذهباً "[5].وكان بعضهم يرتدي الصوف ، ويفضل الجلوس مع البسطاء والمساكين تواضعاً ، أملا أن يخفف الله عنهم حسابهم .

ولعل الفقر والعجز[6]من بين الأسباب التي توجه الإنسان للزهد في الدنيا من أجل الآخرة ، فالإنسان بطبعه يميل بعد أن يبلغ من العمر عتياً ، إلى السكون والركون إلى الله تعالى ، ويزهد بما كان يسعى له في شبابه فقد اقترب العمر من الانتهاء ، فلا قدرة للمسنّ

---

(1) المصدر السابق ، ص١٣٧٦ .

(2) المصدر السابق ، ص١٣٧٤ .

(3) محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٨٥ .

(4) مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، ص١٦٠ .

(5) ابن سعد محمد : الطبقات الكبرى ، دار بيروت ــ لبنان ، ١٩٥٧م ، المجلد السادس ، ص١١٤ .

(6) مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، ص١٥٥ وما بعدها ، وينظر : محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على ممارسة الحياة كما يتمنى ، فيجتهد في عبادته لله ، فالوضع الاقتصادي لم يكن بمنعـــزل عن تحريك الزهد في نفوس المسلمين ، والفروق الاجتماعية بين الطبقات الإسلامية واضحة ، فما كان للطبقة الفقيرة البائسة إلاّ أن تقنع بالكفاف من الرزق ، وقد كان سوء توزيع الـــثروة واضحاً جلياً في البصرة ، فكان هذا هو سر كثرة الزهّاد فيها ، ولعل أهل الصفّة هم أول من مثل فئة الفقراء الزهّاد في الإسلام [1].

ثانياً : العامل السياسي

لعل من أخطر الظروف التي أحاقت بدولة الإسلام في حيـــاة الصحابـــة والتـــابعين ـــ رضوان الله عليهم ـــ ما حلّ بالأمة بعد مقتل عثمان بن عفان ـــ رضي الله عنـــه ـــ ثـــالث الخلفاء الراشدين ، إذ تاه المسلمون ، واختلط الحق بالباطل حتى تفرقـــوا شـــيعاً وأحزابـــاً ، فتقاتلوا وتناحروا وسفكت دماء المسلمين بسيوف المسلمين .

وبدأت الأحداث السياسية بالتسلسل بدءاً بالصراع الخطير ـــ مقتل عثمان ـــ الذي ترك أثراً عميقاً في توجيه الحياة السياسية في الدولة الإسلامية ، وهو الحدث الذي يعتبر ثورة بسبب فساد الحكم وظلمته ، فكان بعد مقتله حزب الأمويين الذي طالب بدمه ، ثم تبعه الشـــقاق الذي وقع بين معاوية وعلي بن أبي طالب الذي ظهر نتيجة الحزب المتعصب للإسلام ، وهـــم الخوارج ، والذي كان أغلبه من الموالي [2].

وقد أعقب مقتل علي ظهور حزب سياسي جديد [3]، وهم الذين عرفوا بالشـــيعة ، فكان لهم دور مهم في تحريك الأحداث السياسية ، وما أن خلص الأمر للأمويين حتى أحيـــوا العصبية القبلية من مرقدها إحياءً شديداً ، مما زاد الأمر تعقيداً إقرار معاوية لمبـــدأ الوراثـــة في

---

(1) محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٨٩ .

(2) المصدر السابق ، ص٢٧ ، وينظر : بوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، ت عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصريـــة ـــ مصـــر ، ١٩٥٨م ، ص٤٣ .

(3) اختلف المؤرخون في نشأة هذا الحزب ، لكنّ الشيعة كفكرة ، ظهرت بعد وفاة الرسول ـــ صلى الله عليه وســـلم ـــ عـــندما اجتمـــع المسلمون في السقيفة ، إذ ظهر من يقدم علي بن أبي طالب للخلافة ، وبعد مقتله تكوّن لهم حزب سياسي . ينظـــر : إبراهيـــم شـــحادة الخواجة : شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري مطبعة الكويت ـــ دار فاطمة للنشر ، ١٩٨٤م ، ص١٧ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحكم ، إذ كانت صدمة المسلمين الذين اعتادوا الشورى والبيعة ، فسخط الناس على الأمويين وقادتهم المنحرفين ، أمثال يزيد بن معاوية ، وكان أشد السخط عليه بعد أن قذف الكعبة بالمجانق وحرقها بالنار ، الأمر الذي حدا برجل كالحسن البصري ألا يحتسب عيباً للأمويين أكبر من قذفهم الكعبة وحرقها [1].

أما مقتل الحسين بن علي في عهد يزيد ، فكان حدثاً مربكاً للمسلمين كافة ، فسخطوا عربًا وموالي سخطًا شديدًا ، وتمنوا زوال الهيمنة الأموية ، بالإضافة لذلك كان للموالي مظلمة أخرى تؤرق مضجعهم ، وهي النظرة الفوقية التي ينظرها الأمويون لهم إذا ارتد الأمويون للعصبية العربية في تعاملهم معهم ، وبذلك نقضوا أساسًا هامًا من أسس الإسلام ، وهو المساواة التامة بين معتنقيه .

ولقد كان لهذه الظروف والواقع السياسي المشكل الذي أحاط بهذا العصر أن أظهر " مشكلات في الفكر والعقائد كثيرة ، تثير جدلا عنيفًا حول تحديد مدى الفعل الإلهي ، ومدى الفعل الإنساني ، ومسؤولية الإنسان ، وموقف المسلم إزاء الأحداث التي تجري حوله ، وحكم مشاركته فيها ، أو إحجامه عنها ، وكيف يحكم عليها " [2].

ويذكر هدارة أنّ الحروب الطويلة الدامية والتطرف والعنف وكثرة الاستهانة بالمسائل الأخلاقية ، وما عاناه الناس من ظلم الحكام ، كان سببًا هامًا في تحريك نفوس الناس للزهد في الدنيا ، إذ حولت أنظارهم للآخرة ، ووضعت آمالهم فيها ؛ لذلك ظهرت حركة الزهد قوية عنيفة ، وانتشرت على مرّ الأيام ، فكان زهدًا دينيًا خالصًا في بادئ الأمر ، حيث ظلت تحمل طابع أهل السنة في فترة حكم الأمويين ، وكان القائمون عليها من أشدّ أتقياء المسلمين [3].

---

[1] محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٩ .

[2] محمد بن حسن الزير : الحياة والموت في الشعر الأموي ، دار مية للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص١٨ .

[3] محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والناس يسعون إلى الحياة الآخرة ، ويتركون الدنيا هربًا من ويلاتهـــا ، وخوفًـــا مـــن الخوض فيها ، فهذا أبو بلال الخارجي ، يدعو الله أن يميته ؛ لأنه سئم من العيش ومن الدهر ، بسبب الظلم الذي يقع عليه :

إلهي هب لي زلفـــةً ووسيلـــةً إلـــيك فإنّي قد سئمْتُ من الدّهرِ
وقد أظهرَ الجورَ الولاةُ وأجمعوا على ظلمِ أهلِ الحقِّ بالغدرِ والكفرِ [1]

لهذا كلّه ، اعتزل الناس الدنيا ، وتركوا مشاكلها وفتنها ، وآثروا الانقطاع لله تعالى ، فامتنعوا عن المشاركة فيها ، وكانت العراق أكثر البلاد الإسلامية ميولا للزهد والتديـــن ، إذ يرى أحد الباحثين أنّ العراق إلى جانب الظروف القاسية السابقة ، كان يعاني مـــن ضغـــط شديد بسبب ظلم الولاة الأمويين ؛ " لذلك كان العراق أهمّ إقليم اشتدّت فيه موجة التعبـــد والزهادة من أقاليم الدولة الإسلامية ، إلى جانب عوامل أخرى كعراقته في الثقافة والحضارة ، واتصاله بالعناصر الأجنبية " [2]، فكانت العزلة والانقطاع عن الدنيا بسبب فشلهم في تحقيـــق ما تصبو إليه نفوسهم من تحقيق النصر والظفر على السلطة ، مما أدى إلى الارتداد العقـــائدي والعودة إلى العبادة ؛ أملا في تعويض نفوسهم في الآخرة عما خسروه في الدنيا ، و" ربما كان هذا في أيام عثمان نفسه " [3].

ونتيجة لذلك ، تكونت الحياة الروحية لدى المسلمين في هذا العصر ، فأصبح المقبلون على التدين والعزلة يكوّنون طائفة خاصة متميزة ، غلب عليهم في هذه الفترة اسم (القـــرّاء) [4]، كما نتج عن ذلك أيضًا أن استحدثت ظاهرة القصـــص والتذكـــير ، إذ قـــام الدعـــاة والقصّاص يقصون على الناس ويدعونهم ويعظونهم ؛ لما رأوا من ضعف الوازع الديني عمّـــا كان عليه في عهد الرسول ، ويروى عن ابن عمر أنه قال : إنّ هذه القصص أمر مســـتحدث

---

(1) نايف معروف : ديوان الخوارج ــ شعرهم وخطبهم ، دار المسيرة ــ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٣م ، ص١٩٣ .

(2) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص٣٦ .

(3) محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٨٤ .

(4) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد مقتل عثمان ، إذ لم يكن موجوداً في عهد الرسول عليه السلام ، أو في عهد أبي بكر وعمر ، ولعلّ أهم الشخصيات وأشهرها في هذا المجال ، شخصية الحسن البصري [1] .

وما يروى في اندفاع المسلمين إلى العزلة والابتعاد عن الخوض في دماء المسلمين صيانة للنفس ، وحفاظًا عليها من الوقوع في الكبائر ، أنّ مرّة الهمذاني ، من أصحاب ابن أبي مسعود ، أنّه قال : " لمّا قُتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ حمدتُ الله ألا أكون قد دخلْتُ في شيء من قتله ، فصليت مائة ركعة ، فلمّا كانت النهروان ، حمدت الله ، إذ لم أشهدها ، وزدت مائة ركعة ، فلمّا كانت فتنة ابن الزبير ، حمدت الله ، إذ لم أشهدها ، وزدت مائة ركعة " [2].

وقال عمر بن عبد العزيز عند مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه : " تلك دماء كف الله يدي عنها ، فأنا لا أحب أن أغمس لساني فيها " [3].

وهكذا تتابعت الأحداث على المسلمين ، وقد ازداد المقبلون على العبادة والتاركون لضوضاء الفتنة ، وتضارب الآراء فيها ، إصرارًا على الزهد في الدنيا ، مؤثرين النجاة والسلامة ، شاكرين الله توفيقه إياهم إلى هذا السبيل .

ثالثًا : العامل الاجتماعي

لا شك أنّ مجيء فجر الإسلام أحدث تغيرات كثيرة في المجتمع العربي ، وقد بهرهم الدين الجديد ، وبهرتهم الحياة والظروف الجديدة التي يعايشونها ، فقد كان القرن الأول مسرحًا لتفاعل المؤثرات والعوامل التي ظهرت آثارها واضحة في تكون المجتمع الإسلامي .

ولعلّ أهم هذه التغيرات الاجتماعية ، هجرة العرب وخروجهم من جزيرتهم ، واستقرارهم في أماكن جديدة من البلاد المفتوحة ، واختلاطهم بالشعوب والأمم المغلوبة التي أصبحت تحت سيطرة الدولة الإسلامية ، مما كان له بالغ الأثر في نفسية الإنسان العربي

---

[1] المصدر السابق ، ص٣٧ وما بعدها .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١٢٩ .

[3] المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعقليته ، وكان العراق من أكثر الأمصار التي استقبلت الخارجين من الجزيرة ، إذ كانت بلد الخصب والخير ، مما أثار مخاوف عثمان بن عفان من تفريغ الجزيرة من سكانها ، فاقترح أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث أقاموا ، وأنه لا حاجة لهجرة الناس إلى الأمصار ، وترك بلادهم إلى الجند ، لأنه ليس من إقامتهم في الأمصار بد [1]، ولكن لم يكن بدّ من الاختلاط كذلك ، فالعرب محدودو الحضارة قياساً بهذه الحضارات المتقدمة التي أنتجت مجتمعاً جديداً يبني القصور التي اقتظّت بالجواري الأجنبيات من كل لون ، وأترف ذوقهم وأترف شعورهم وعاشى الموالي في خدمتهم [2]، ولذلك كله أخذت الحياة الاجتماعية في القرن الأول تتعقد بتأثرها بالحضارات المختلفة ، إذ أصبح شرب الخمر والعكوف على الملذات شيئاً طبيعياً ، ومظهراً من مظاهر الحضارة في هذا العصر [3].

ومن التغيرات الاجتماعية التي ظهرت في الساحة الإسلامية ، اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، فكثرت الأموال والعطايا بين أيدي الناس ، بالإضافة إلى حركة التعريب الجنسي عن طريق السبي ، والزواج بالفارسيات ، الأمر الذي انعكس على الناس في الترف واللهو والتمتع بملذات الدنيا ، فكثرت الثروات والأموال ، بالإضافة إلى أنّ الدولة الأموية كانت تعين على تحقيق الغنى والترف للناس من أجل إشغالهم عن السياسة والحكم ، وخصوصًا في الحجاز .

كانت نهاية القرن الأول الهجري مسرحًا للهو والمجون ، وأصبح هذا السلوك مظهرًا اجتماعيًا معروفًا بين الخاصة والعامة ، وليس أدلّ على ذلك من شخصية الوليد بن يزيد الذي عاش حياة مادية مترفة معروفة .

ففي هذه الحياة الماجنة ، كان لا بد من وجود من يعزّ عليهم أن يسلك الناس هذا السلوك السيئ البعيد كل البعد عن مبادئ العقيدة السمحة ، والسنة النبوية الشريفة ؛ لذلك وُجد من يحتفظ بدينه ، ويتمسك به ، بل ويدعو إلى العودة إلى الدين القويم ، وترك الدنيا

---

[1] الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ص٢٧٤ .

[2] شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ــ مصر ، ط٢ ، ١٩٥٩م ، ص١١١ .

[3] محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحطامها ، فظهر الزهّاد والدعاة الذين يتمسكون بما يعتقدون أنه يرضي الله ، ويخلصهم من فتن الدنيا ، ووجدت ظاهرة اجتماعية جديدة ، لم يكن لها سابق وجود ، وهي ظاهرة القُصّاص والوُعّاظ والمذكرين بالله ، الداعين إلى الانقطاع لعبادة الله ، وما بروز هذه الظاهرة إلا لشعور أصحابها بضعف الوازع الديني لدى الناس ، فظهر الزهد ، واتّسع بشكل كبير بين الناس ، كردّ فعل على التهتك والمجون والسعي وراء ملذات الدنيا ، ولعلّ الحسن البصري من أشهر الوعّاظ في العصر الأموي (ت ١١٠هـ) ، الذي اهتم بالدعوة إلى الله ، وحث عليها منبهًا إلى أنّ الدنيا فانية ، وأنّها دار عمل من أجل الآخرة ، وما هي إلا حطام زائل ، ويعدّ المال والولد مشغلة للإنسان ، تفسده عن القيام بواجبه تجاه خالقه[1] .

رابعًا : عامل خارجي :

يعد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الزاهد الأول في الإسلام ، وكان قبل البعثة ، يحب الخلوة ، فينعزل في غار حراء ، ويتحنث فيه ، ويتعبد ليالي عديدة ، يعود إلى بيته ليتزود بالطعام والشراب ، ثم يرجع أدراجه إلى الغار [2]، فقد قال الذين رأوا زهده وعبادته : عشق محمد ربه [3].

وعلى هذه الحال ، نزل عليه الوحي ، فاستمر عليه السلام على ما هو عليه من العبادة بعد نزول الوحي أيضًا ، وكانت هذه الأعمال النفسية والفكرية نهجًا يطبقه في حياته ، لقوله تعالى : { يا أَيُّهَا المُزَّمِّلُ قُمِ اللَيلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصفَهُ أَوِ انقُص مِنهُ قَلِيلاً * أَو زِد عَلَيهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتِيلاً }[4] ، فاندفع كثير من الصحابة والتابعين إلى حياة زاهدة ، مركزين اهتماهم إلى الحياة الآخرة ، فتركوا الدنيا الفانية وزخرفها الزائل ، وانقطعوا إلى العبادة ، والابتهال لله ، والتوكل عليه ، وانتظار ما عنده من ثواب ، فانطبعت حياتهم بطوابع روحية دينية كريمة .

---

[1] مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، ص١٦٤ .

[2] السلمي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى : تسعة كتب في أصول التصوف والزهد ، ص١٢ .

[3] المصدر السابق ، ص١٣ .

[4] سورة المزمل ، الآيات ١ـ٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينقسم الباحثون في أصالة الزهد والتصوف الإسلامي إلى فريقين نورد آراء بعضهم باقتضاب :

يرى الفريق الأول ، أنّ الزهد والتصوف الإسلامي ، يعود إلى منابع غير إسلامية ، وأنها على علاقة وطيدة بالأديان الأخرى . فعبد الحكيم حسان يرى أنّ " صلة العرب باليهودية والمسيحية كانت قوية منذ العصر الجاهلي ، فلما جاء الإسلام ، ساعد على اتصال المسلمين بديانات وفلسفات كثيرة ، ظهرت في الأراضي التي ضمها إلى أقاليمه ، ففي العراق ، كانت الثقافات اليونانية والسريانية منتشرة ومتداولة ، وفي الشام لم تهدأ المناقشات بين مذاهب المسيحية بعد ، وعلى أرض فارس كانت المانوية والمزدكية وغير ذلك من مختلف الديانات والعقائد ، إلا أنّ دور المسيحية واليهودية في تلك الفترة كان أكثر ظهوراً ؛ لقدم الصلة بينها وبين العرب منذ العصر الجاهلي [1].

ويرى شوقي ضيف أنّ العراق منذ العصر الجاهلي ، كان شديد الصلة بالحضارات الفارسية والرومانية والبيزنطية ، إذ دخلت إليه المسيحية ، وتنصرت الحيرة والموصل ، وصلة المسيحية بالثقافة الهيلينية معروفة [2].

أمّا الزهد ، فقد نشأ نشأة إسلامية خالصة ؛ إذ دعا إليه القرآن الكريم والسنة النبوية ، فلم تدخل فيه عناصر أجنبية إلا في عهد الفتوح واختلاط العرب مع غيرهم من الأمم المغلوبة ، فكان من أكثر هذه العناصر المسيحية ، وقد كان لحركة الرهبنة المسيحية في مصر والشام والعراق خاصة أثرًا في اتساع حركة الزهد في الإسلام ، أكثر من أثره في وجودها [3].

أما محمد مصطفى هدارة ، فلا يستبعد أن يكون هناك " تأثيرات مختلفة في حركة الزهد ، مسيحية أو بوذية ، تسير مع حركة التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية

(1) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص٤٠ .

(2) شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر العربي ، ص٣٥٥ .

(3) المصدر السابق ، ص٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتباينة " [1]؛ لذا لا يستبعد أن تكون نزعة الزهد التي أتت على الشـــرق الأدنى في العصـــر المسيحي ، وما قبله ، قد أستولت على عقول الأتقياء من المسلمين الذين أهلكوا أجســـامهم بالعبادات من صوم وصلاة ، وتلاوة القرآن ، مبالغين في ذلك ، وخارجين عما عرف مـــن عبادات أيام الرسول عليه السلام والصحابة والتابعين .

أما جولد تسيهر ، فيرى أن العقائد الهندية أثرت في الآراء الزهدية والصوفية الإسلامية ، فاكتسبت بفضلها قوة وعمقاً ونفاذاً . يقول : " وتخلص من هذا إلى بيان هذه الحقيقـــة ، وهي أن الفكرة الدينية المسماة بالزهد ، التي صادفت الإسلام السني ، والـــتي لاتتفـــق مـــع السمات المألوفة التي نعرفها في التصوف الإسلامي ، تكشف عن آثار قوية تدل على تســـرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام [2].

ويرى عمر فرّوخ أنه من الممكن أن يكون المسلمون قد تأثروا في مجال الزهد بالاتجـــاه الفلسفي الذي ساد العقل اليوناني ، ويشير إلى (فيثاغورس) في القرن السادس قبل الميـــلاد ، والذي يرى أنّه هناك عالماً روحانياً نورانياً لا يدرك العقل حسنه ، وأنّ نفس الإنسان تشـــتاق إليه ، وأنّ كل إنسان أحسن العقل حسنه بالتبرؤ من العجب ، والتجرد والرياء والحســـد ، وغيرها من الشهوات الجسدية . ويرى أن الزهد نفسه إسلامي ، لكنّ المبالغـــات والإيغـــال تشترك فيها الديانات المختلفة . يقول : " وأنا لا أرى بأساً أبداً في أن يكون الزّهاد المسلمون قد تأثروا بالرهبان النصارى بعض التأثير ، فإن القرآن الكريم يمدح النصارى الأولين مدحـــاً طيباً " [3]، وصدق الله تعالى إذ يقول في محكم التنـــزيل : { لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }[4] ؛ لذلك نفهم ممـــن يـــروي أن زهـــاد المسلمين قلّدوا الرهبان المسيحيين ، وأنّهم شاركوا في ترك الدنيا ، والإحجام عن ملذاتهـــا ،

---

[1] محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، ص٢٨٥ .

[2] جولد تسيهر ، أجناس : العقيدة والشريعة في الإسلام ، دار الكتب الحديثة ـــ مصر ، ط٢ ، دت ، ص١٥٩ .

[3] عمر فروخ : التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ـــ بيروت ، ١٩٨١م ، ص٣٠ .

[4] سورة المائدة ، الآية ٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا تعبد شائع في زهد الأمم جميعها ، وبما أنّ " الإسلام اعترف بأنّه رجع في كثير من الأمور إلى صفاء اليهودية والمسيحية " [1]، فيجب علينا ألا نضيع الوقت في تفاصيل الأسس الأولى للأديان .

أما الفريق الثاني ، فيرى أنّ الزهد والتصوف يعودان في منابعهما الأولى إلى أصول إسلامية خالصة . تقول قمر الكيلاني : " إطلاق الحكم بأنّ التصوف دخيل في الإسلام غير معقول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أنّ الأنظار التي اختص بها متصوفة المسلمين ، نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها إبان عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث ، وتأثرت بما أصاب الجماعة من أحداث ، وبما حل بالأفراد من نوازل " [2].

أما مجاهد مصطفى بهجت ، فيرى أنّ التصوف المسيحي والهندي لا يمكن اعتباره كما يرى البعض مصدرًا من مصادر الزهد الإسلامي ، مع أننا لا ننكر التأثير البسيط لها ؛ لأنّ التأثير الأجنبي لم يظهر عميقًا في العصور اللاحقة ، كما أنّ هناك فارقًا بين الاتجاهات الأجنبية والاتجاه الإسلامي في الزهد ، ويرى أنّ المستشرقين بالغوا في الربط بين التصوف في الأديان السابقة للإسلام والتصوف الإسلامي ، وهذا يعود إلى جهل المستشرقين بالمبادئ الروحية الإسلامية المنتشرة في القرآن الكريم والسنة النبوية [3].

ويسوق السيد محمود أبو الفيض المنوفي الآيات التالية ؛ ليدلل على أنّ التصوف هو الزهد نفسه ، منها قوله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ }[4] ، وقوله تعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا }[5] .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الزهد نشأ إسلاميًا خالصًا ، فقد دعا القرآن الكريم إلى تقوى الله وعبادته في مختلف سوره وآياته ، أمّا السنة النبوية ، فهي خير مثال على الزهد

---

[1] عمر فروخ : التصوف في الإسلام ، ص١٤ .

[2] قمر الكيلاني : في التصوف الإسلامي ــ مفهومه وتطوره وأعلامه ، دار مجلة شعر ، المكتبة العصرية ــ بيروت ، ١٩٦٢م ، ص١٥ .

[3] مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي ، ص١٥٦ ــ ١٥٧ .

[4] سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .

[5] سورة الفرقان ، الآية ٦٢ ، ٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر ، فإنّ الزهد نشأ إسلاميًا خالصًا ، فقد دعا القرآن الكريم إلى تقوى الله وعبادته في مختلف سوره وآياته ، أمّا السنة النبوية ، فهي خير مثال على الزهد الإسلامي ، والصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا يطبقون هذه السنة في العبادة ، وهم من قال فيهم الحسن البصري : " أدركت من صدور هذه الأمة قومًا ، كانوا إذا جنّهم الليل ، فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم "[1] .

والحق ، أنّ الزهد تطور مع مرور الوقت ، فقد اتخذ طابعًا جديدًا في نهاية القرن الأول عما كان عليه في بدايته ، وفي بداية القرن الثاني ، أخذت الأفكار الأجنبية في الظهور ، فاستقلت الحياة الروحية عن الحياة العامة أكثر مما كانت عليه في أي وقت سابق ، ولا يمكن إنكار وجود تأثير أجنبي على الزهد الإسلامي في تاريخه الطويل ، ولكنه في جذوره الأولى إسلامي خالص ؛ فالزاهد الأول هو محمد عليه السلام ، ولكن يجب ألا نتحرج من الاعتراف بأنّ زهّاد المسلمين تأثروا بتعاليم المسيحيين واليهود وتقاليدهم ، وليس أدلّ على ذلك من وجود آيات من التوراة والإنجيل منسوبة إلى أولياء المسلمين كالإسرائيليات ، فكانت المسيحية أظهر من اليهودية آنذاك في الجزيرة العربية ، ولعلّ ذلك عائد إلى موقف الإسلام والقرآن الكريم من المسيحيين واليهود ، بالإضافة إلى أنّ المسيحيين كانوا أكثر ترويجًا لثقافتهم من اليهود .

ويذكر أنّ بعض المتعبدين من المسلمين كان يسعى للقاء الرهبان ، كما يسعى الرهبان للقائهم ، إذ كان لحياة المسيح أثر على حياة المتصوفة المسلمين ، عن طريق دراستهم الإنجيل [2]، والكثير من تفاصيل حياته ؛ لذا لا ننكر العلاقة القائمة بين الإسلام والأديان الأخرى ، إلا أننا نرى أنّ منبع الزهد الأصلي هو الإسلام ، وقدوته الأولى هو الرسول عليه السلام ، وأنّ التأثير الأجنبي لا مراء ولا جدال فيه ، إذ إنّ التطور الكبير الذي أصاب الزهد

[1] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص٩١ .

[2] عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي ، ص٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيّر تاريخه ، وظهور حركة التصوف بما تحويه من مبالغات كبيرة ، لهو خير دليل على دخول العنصر الأجنبي في الساحة الإسلامية وتأثيره على أبنائها بشكل أو بآخر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موضوعات شعر الزهد في العصر الأموي :

لقد تطورت الحياة الاجتماعية في العصر الأموي بسبب الهجرة الواسعة للقبائل العربية من جزيرتها ، واستقرارها في أقاليم متحضرة في الشام والعراق ومصر ، وأخذها بكل ما هيأته لها الحضارات الأجنبية من ترف العيش ولين الحياة ، وبسبب هذا الاختلاط الواسع الذي تمّ بين العرب والأجناس الأخرى التي شملتها الفتوح الإسلامية ظهر جيل جديد من المولدين الذين يحملون خصائص عقلية جديدة ، مما هيّأ للعابث اللاهي كل أسباب العبث واللهو من شراب تقوم على صناعته وبيعه عناصر أجنبية ، وغناء ورقص وعزف تقيمه بيوت اللهو ، وفي مقابل ذلك وُجِدَ الزاهدون المتعبدون الذين زادتهم حياة الترف واللهو إمعاناً في التصوف والزهد ، وعكوفاً على العبادة ، وأعانهم على ذلك السلوك المثالي للمسلمين الأوائل الذين كانت حياتهم مضرِب المثل في الورع والتقشف ، لذا تمثلت أشعار الزهد في هذه الحقبة في موضوعات عدّة ، منها :

أولاً : تحقير الدنيا :

لقد شغلت الحياة الدنيا بال الشعراء الزهاد ، فأكثروا من الحديث عنها ؛ فهي أقرب الأشياء لهم وأحبها ، فبعد أن كانوا يظنون أن لاّ حياة لهم إلاّ عليها ولا بعث ولا حياة للعظام الرميم أصبح إيمانهم كبيراً أنّ الحياة الدنيا فانية مؤقتة ، وأنه توجد حياة أخرى خالدة بعد الموت ، فآمنوا بذلك ، وعملوا على تحقيقه بالعبادة والتقوى والزهد بالدنيا ، فتضاءلت في نظرهم وصغرت قياسًا إلى حياة الخلود والسعادة في الآخرة التي أغفلها العابثون واللاهون ، وتهالكوا على الدنيا .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان الاضطراب السياسي ، والفتن والاقتتال الداخلي ، وقتل الخلفاء وكبار الصحابة من المسلمين بسيوف المسلمين أنفسهم ؛ مما أثار الخوف والهلع والفزع في نفوس المؤمنين الزاهدين ، فزادوا في عزلتهم وانصرافهم لزهدهم وتقشفهم .

أمّا أشعار الزهد في هذا العصر ، فكانت تركز على بعض المعاني التي يزهد من خلالها الإنسان بالدنيا ، ويتطلع إلى الآخرة بما فيها من نعيم وخلود للمؤمنين ، ومن هذه المعاني :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **قصر الدنيا وسرعة زوالها :**

وصف رؤبة بن العجاج الدنيا أنّها بقيمتها وقصرها ضبابة قصيرة الأمد ، لا بد أن تنقشع وتزول ، وهذه صورتها في نظر التقي الورع الذي تصبو عينه للحياة الآخرة ، ولا يرضى أن تشغله الحياة الدنيا عن عبادته وتقواه ، يقول :

ومثلُ الدنيا لمن تروعا ضبابةٌ لا بُدّ أن تُقشعا[1]

وقد تكرر هذا المعنى عند العديد من الشعراء ، فهي في نظر ابن شبرمة سحابة صيف سريعة الزوال ، وهو بذلك يستخفّ بها ، ويسخر ممن يتهالك عليها ، يقول :

أراها وإن كانت تُحبُّ فإنّها سحابة صيفٍ عن قريبٍ تقشّعُ[2]

والدنيا محبوبة مرغوب فيها ، ولا يوجد من يرضى بالموت ، وحتى المريض العليل فإنّه يخاف الموت ويرفضه ، وهو أمر لا يختلف عليه اثنان ، وهذا ما أكد عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز الزاهد ، عندما رأى المتهالكين على الدنيا ومطامعها ، متناسين الآخرة التي هي خير وأبقى ، فهي وإن أعجبت بعض الناس ، إلا أنّها متاع قليل ، سرعان ما يتلاشى ويزول ، ولا خير فيها إذا لم تكن في الإعداد ليوم الحشر ، والإكثار من العمل الصالح :

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكن له من اللهِ في دارِ القرارِ نصيبُ
فإن تعــجب الدنــيا أناسًا فإنّها متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريــبُ[3]

والدنيا في نظر وهب بن منبه ، مكان جميل ، يحتوي على ظل قليل ، يمر به المسافر ، فيقيل فيه هنيهةً ، ثم يمضي ، فلا يستقر فيه ولا يعمر ؛ لذلك لا يصح التمسك بها والتــهالك عليها ، وما هي إلا محطة صغيرة ، يمكث بها الإنسان ليستعد لما بعدها :

ألا إنّما الدنيا مقيلٌ لرائحٍ قضى وطرًا في حاجةٍ ثمّ هجّرا[4]

---

(1) وليم بن الورد البروسي : مجموع أشعار العرب ــ رؤبة بن العجاج ، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ، ط1 ، 1979م ، ص88 .

(2) الأندلسي أحمد بن محمد بن عبد ربه : العقد الفريد ، ت محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ــ القاهرة ، ط1 ، 1940م ، ج3 ، ص126 .

(3) نبال تيسير خماش : شعر الخلفاء في العصري الراشدي والأموي ، 1984م ، ص129 .

(4) الزمخشري : ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، ت عبد المجيد دياب ، الهيئة العامة للكتاب ، 1992م ، ص9 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشبه الحسن البصري الدنيا بأحلام النائم ، التي سرعان ما يفيق منها ، فلا يجد ممـــا رأى شيئًا ، وهي ظل زائل متنقل متقلب قصير الأمد ، وما وصفها الحسن البصـــري بهـــذه الصفات إلا لإيمانه بأنّها كذلك ، ولعّل وصفه إيّاها بالظلّ الزائل ، دون أن يكتفي بكلمـــة (ظلّ) فقط ، راجع لإمعانه في قصرها وسرعة زوالها ، والإنسان العاقل هو من لا يغتر بها ، ما دامت تزول كزوال الظل والحلم :

أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلِ إنّ اللبيبَ بمثلِها لا يُخدعُ[1]

وفي هذا المعنى يقول مسلم بن الوليد الملقّب بـــ(صريع الغواني) :

دلّت على عيبِها الدنيا وصدّقها ما استرجعَ الدّهرُ مما كان أعطاني[2]

ويتحسر الفقيه يوسف بن عبد العزيز على نفسه ، أو على من يتمسكون بالدنيـــا ، وهي أمل لا يتحقق ، وإن تحقق فإنّ أمده قصير ، ويرى أنّ تجارة من تمسّك بها خاسرة ؛ لأنّه يتّجر بها وهو يعلم حقيقتها ، ونفسه هي التي تحرّضه عليها ، فيعترف بواقع يعـــجّ بـــالحزن والمرارة والأسى ، وهو تمسّكه بدنيا قصيرة يأمل أن يحقق فيها ربحه ، مع علمه أنّـــها تجـــارة خاسرة :

نقل بالدنيا ونعرفُ غبّها وغيضُنا حرصُ النفوسِ الشحائحِ

وأحزنني ألا أزالُ موكلاً بتـــأميل أمـــرٍ لستُ فيه برابحِ[3]

أمّا سابق البربري الفقيه الزاهد ، فيقف متسائلاً : ما بال الناس يتمسكون بالدنيـــا ويتهالكون عليها ، وهم يعلمون أنّها موليّة ذاهبة بلا رجعة ؟! ، ومن غادرها لا يعود إليها ، وحبائل الناس معها بالية ضعيفة عمّا قريب سوف تنقطع ، والناس لا يشعرون بأي نقـص في دينهم أو تقصير يبدر منهم ، لكنّهم يشعرون بأدنى تقصير في دنياهم ، ويعالجونه ، ويؤنـــب الشاعر نفسه ويحاسبها على تمالكها على الدنيا ، وعدم تأثير العبادة في جسده ، يقول :

(١) الغزالي أبو حامد محمود بن محمد : إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، دت ، ج٣ ، ص٢٢٨ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٩ ، ص١٤٥ .

(٣) المرزباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى : معجم الشعراء ، ت عبدّ الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٠م ، ص٥٠٢ ــ ٥٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما لي أرى الناس والدنيا مولّيةٌ ... وكلُّ حبلٍ عليها سوف ينبترُ
لا يشعرون بما في دينهم نقصوا ... جهدًا وإن نقصتْ دنياهمُ شعروا
إذا لداويتُ قلبًا قد أضرَّ به ... طولُ السقامِ وهيضُ العظمِ ينبجرُ[1]

فالشاعر يقف يعالج نفسه ويحاسبها ، من خلال توجيه الأسئلة المتتابعة لها ، داعيًا الناس إلى الاتعاظ بما يقول ، من خلال اعتباره حب الدنيا والتهالك عليها مرضًا يجب التخلص منه ، وعلاج ذلك بالعبادة والتقوى والترفع عن الدنيا .

وهذا الشاعر الخارجي أبو بلال يقول أنّه حاول المقارنة والموازنة بين الدنيا والآخرة ، فلم يجد مجالاً لذلك ، إذ وجد الدنيا لا تساوي شيئًا قياسًا للآخرة :

إنّي وزنْتُ الذي يبقى بعاجلةٍ ... تفنى وشيكًا فلا واللهِ ما اتّزنا[2]

وهذا زياد بن الأعجم يعاتب نفسه على تخاذلها عن الجهاد ، مبينًا خوفه واضطرابه النفسي ، من خلال صراعه بينه وبين نفسه التي تحب الدنيا والتمتع بها من ناحية ، وحبه للجهاد والشهادة والحياة الآخرة من ناحية أخرى ، يقول :

أقيمُ على الدنيا كأنّي لا أرى ... زولاً لها وأحسبُ العيشَ باقيا[3]

- **غرور الدنيا للناس :**

إنّ الدنيا تغرّ الناس وتخدعهم ، وتوقعهم في الأعمال الفاسدة ، فينغمسوا فيها أيّما انغماس ، مما يؤدي إلى طغيان هذه الأعمال الضالّة على عمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لقد لعبت الفتوحات واتساع رقعة الإسلام التي حوت حضارات مختلفة انضوت تحت رايتها ، دورًا هامًا في غرور الناس بالدنيا ، إذ أصبح في متناول أيديه الكثير من المغريات مما اشتملت عليه الحضارات الجديدة ، من غنىً مادي وترف ولهو وغناء وسكر وسبايا وعبيد ، فكانت بريقًا لامعًا أمام أعينٌ المسلمين ؛ مما غرّر بعضهم به ، ولحقوا السراب يطاردونه .

(1) عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم : شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ، ١٩٧٣م ، ص٣٤٤ ــ ٣٤٥ .
(2) إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج : دار الشروق ـــ بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢م ، ص٦٥ .
(3) المصدر السابق ، ص٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أنّ لفظة (الغرور) التي أكثروا من استخدامها ، قد تأثروا بورودها في القرآن الكريم الذي ركّز من خلالها على تحقير الدنيا والتقليل من شأنها قياسًا للآخرة ، فقد سبق القرآن الكريم الشعراء بإطلاق هذه الصفة للدنيا ، يقول تعالى : { وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ }[1] ، ويقول : { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارتَبتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ } [2]، وكان تأثر الشعراء بهذا اللفظ تأثرًا عميقًا ، فأكثروا من ذكره ووصف الدنيا به .

فالدنيا في نظر عمر بن عبد العزيز لا تستحق الفرح والاطمئنان إليها ؛ لأنها كالحلم للنائم ، ويرى أنّ من يغتر بها يلازمه الردى جرّاء تهالكه على حطامها الزائل ، يقول :

تُسرُّ بما يغنى وتفرحُ بالمنى ... كما اغترَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والردى لك لازمُ [3]

ويقف من الناس موقف الواعظ المشفق عليهم من عبثهم ولهوهم ، فيخاطبهم بأسلوب بلاغي يثير في النفس والعقل رغبة حقيقية للنظرة المتأملة في الدنيا ومصير الإنسان فيها ، وانظروا لأنفسكم بتمعن وتمهل ، فقد يكون لكم في ذلك درسًا مهمًا ، فإذا وقفتم بالمقابر وتأملتم ما تستر هذه القبور ، فيكون لكم في ذلك موعظة ، يقول :

ففيهم لك يا مغرورُ موعظةٌ ... وفيهم لك يا مغترُّ معتبرُ[4]

ولعلّ كثرة الأساليب الإنشائية من أمر وتعجب ونداء واستفهام في هذه الأبيات ، تعبر عن مدى انفعال الشاعر ، وتأثره فيما يقول ، فالشفقة على نفسه وعلى الناس ، جعلته يقف موقف الواعظ المتأثر بالأقوام السابقة ، ولعل الانفعال يبدو واضحًا وهو يخاطب عقول الناس ويأمرهم بالوقوف في المقابر ، والنظرة إلى ما فيها من مواعظ وعبر .

---

[1] سورة الحديد ، الآية ٢٠ وآل عمران ، آية ١٨٥ .

[2] سورة الحديد ، الآية ١٤ .

[3] الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٥٩ .

[4] المصدر السابق ، ص٣٥٥ — ٣٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثل هذا نجده عند مسعر بن كرام * الذي يجزم أنّه لم ير شيئًا تمالك عليه الناس وغرّهم ، كما غرتهم الدنيا التي تمالكوا عليها ، وقد تركوا اليقين والإيمان مستوحشًا صاحبه منتظـــرًا إيّاه ، يقول :

ولم أر كالدنيا بها اغترَّ اهلُهــا ... ولا كاليقينِ استوحشَ الدهرَ صاحبُهْ

ولا كالذي يخشى المليكَ عبادُهُ ... من الموتِ خاف البؤس أو نامَ هاربُهْ[1]

أمّا علي بن الحسين فيعترف بانّ الناس يغترون بالدنيا ، وتشغلهم اللذات عما يحاذرون الوقوع فيه من الآثام ، فالدنيا تزين لهم الرذائل ، وتحببها لهم ، ثم يتساءل : كيف يلذ بالعيش من يعلم أنّه سيقف بين يدي الله يوم الحساب ؟! يقول :

ألا لا ولكنّــا نــغرّ نــفوسَنــا ... وتشغلُــنا اللذاتُ عمّا نحاذرُ

وكيف يلذُّ العيش من هو موقنٌ ... بموقفِ عدلٍ يومَ تُبلى السرائرُ[2]

ويتكرر هذا المعنى عند جحدر بن معاوية ، الذي يرى أنّ المغرور ستقضي عليه غفلتـــه وتمالكه على الدنيا ، فكم من رجل قتلته مطامعه وأمانيه ! :

كذا المغرورُ في الدنيا سيردى ... ومهلكُهُ المطامعُ والأماني[3]

ومن يقرأ الأبيات التالية لسابق البربري ، يجد تحذيرًا من الدنيا والغرور بها ، إذ إنّـــها في نظره خدّاعة غرّارة ، تسهل طريق الفساد للمؤمن ليقع فيه ؛ لذلك يجب عليه ألاّ يأمن جانبها ، ولا ينتكث بعد عبادته وإيمانه ، ولا يطلب العلا في الدنيا ، ولا يحاول الحصول فيها علـــى المنازل والنعيم الذي لا يدوم ، ويصور الدنيا بالسراب ، يحسبه الظمآن ماءً ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، ويستشهد على غرورها بالأقوام السابقة الذين مهدت لهم ، فبنوا فيها القصـــور ، وشيدوا الحضارات ، فخانتهم وأتت عليهم ، فغدوا كأنّ شيئًا لم يكن :

وفيك إلى الدنيا اعتراضٌ وإنّمـــا ... يُكالُ لدى الميزانِ ما أنت كائلُهْ

---

* مسعر بن كرام الرواسي ، كوفي ، من ثقات المحدثين ، توفي سنة ١٥٢هـ .

(١) الأصبهاني أبو نعيم أحمد بن عبد الله : حلية الأولياء وطبقات الأوفياء ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، ١٩٦٧م ، ج١ ، ص٢٢٢ .

(٢) ابن كثير أبو الفداء الحافظ : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٠٠ .

(٣) نوري حمودي القيسي : شعراء أمويون ، مكتبة النهضة العربية ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلا تنتكث بعد الهدى عن بصيرة كما نكث الحبلَ المضاعفَ فاتلُهْ
وتطـلـبُ في الدنيا المنازلَ والعلا وتـنسى نعـيمًا دائمًا لا تزايلُهْ
قد خانت الدنـيا قـرونًا تتابعوا كما خانَ أعلى البيتِ يومًا أسافلُهْ
وتصبحُ فيها آمـنًا ثمّ لم تكـن لتأمنَ من وادٍ به الخـوفُ نازلُهْ
وقد ختلتنا باللطيف من الهـوى كما يختل الوحشي بالشيء خاتلُهْ[1]

وفي مثل ذلك قال عروة بن أذينة :

إنّ للدنيا وزهرتَها نعمةٌ لا بدّ منصرمة[2]

ومن جميل ما قيل في غرور الدنيا ، ما قاله أحد الشعراء مصوراً الدنيا بفتاة جميلة جذابة ، لكنّها خدّاعة لخاطبها ، سريعة الانقلاب عليه ، والقضاء عليه ، إذ أنّها أقرب ما تجعل عرسها من عرسه إلى مأتمه ، والشاعر صور الدنيا بهذه الصورة لأنّه يعرف مدى ارتباط الرجال بأزواجهم ، وحبهم لهنّ ؛ ليتخيل كل منهم زوجته تنقلب عليه وتقتله ، ولعلّ ذلك يثير الفزع في النفوس ، ويجعل ما يشبه ردّة الفعل عندما يتلقّى الدنيا بصورتها البشعة هذه ، يقول :

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسِها تنحَّ عن خطبتها تسلمِ
إنّ التي تـخطبُ غرّارةٌ قريبةُ العرسِ من الـمأتمِ[3]

ولعلّ هذا المعنى يتكرر بألفاظ أخرى عند النعمان بن بشر إذ يقول :

---

(1) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية ، دت ، ص١١٨ ، وينظر : الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٤٩ .

(2) محمد عويس : الحكمة في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، ص٢٦١ .

(3) الأندلسي : العقد الفريد ، ج٣ ، ص١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإنّ هذه الحياةَ غرورٌ بعدها الفصلُ بينكم والخلودُ [1]

ويعبّر علي بن الحسين عن غرورها وغدرها بأهلها بصيغة أخرى ، إذ يصورها تجارة خاسر ، ومردّ ذلك أنّها تجعله يمشي لاهيًا عابثًا مفتونًا بها وبتجارته ناسيًا دينه ، وهدف وجوده هو العبادة ، وهو أمر لا يحتمل المراهنة أو المخاطرة ، لذلك يقرر علي بن الحسين أنّ من يخاطر بدينه وعبادته ، ويتجر بالدنيا وملذاتها الزائلة ، ولا يعمل لآخرته ، إنّما هو خاسر في تجارته ، يقول :

وأنت على الدنيا مكبٌّ منافسُ لخاطبها فيها حريصٌ مكاثرُ
على خطرٍ تمشي وتصبحُ لاهيًا أتدري بماذا لو عقلْتَ تخاطرُ
إنّ امرءًا يسعى لدنياه دائبًا ويذهل أخراه لا شكَّ خاسرُ[2]

ومثل هذا الأسلوب يعكس بشكل واضح محاولة الشعراء تقديم فكرة تفاهة الدنيا من خلال صور تعكس علاقة الإنسان بأشياءٍ محببة له .

- **قضية ذم المال وتحقير جمعه واكتنازه :**

وهي ظاهرة أخرى أكثر الشعراء الزهاد في العصر الأموي من ترديدها ،لاسيما أن هذا العصر شهد انقلاباً ماديا واسعاً نتيجة حركة الفتوحات ، وكثرة الموارد المادية من الخراج والجزية وغير ذلك ، وكثير من المصادر الزراعية والتجارية التي أعتقت الأموال في جيوب المسلمين ، مما ضاعف من ثرائهم ، " وقد مضى كثيرون من أصحاب الثراء العريض يحققون لأنفسهم كل ما تصبو إليه نفوسهم من صور الترف ، مما أدى في أواخر العصر إلى ذيوع شعر الخمر وانتشاره " [3]، وكان نتيجة ذلك أن يتزعزع الأيمان في قلوب بعضهم ، فغرهم ما يجري في أيديهم من دراهم ودنانير ونعومة العيش . وهذا لا يعني أن كافة الناس ساروا على هذا النهج ، بل من الأمور الحتمية أنه بقي هناك طبقة فقيرة تعاني العوز والفقر ، إذ لم تنل مما يعبر إلى خزائن

---

[1] أحمد خلاق عروات : الحياة والموت في الشعر العربي ، رسالة دكتوراه ، ١٩٩٣م ، معهد اللغة والأدب العربي ، ص٩٥ .

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٠ ، ص١١٠ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٨٩ .

[3] شوقي ضيف : العصر الإسلامي ، ص٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدولة إلا الفتات ، بالإضافة لذلك كان هناك العبّاد والزهّاد الذين ساءهم ما يسمعون ويرون من رقص وغناء وسكر وشرب في تزامن مع الفتن والاقتتال .

لذلك اعتبر الزهاد أن جمع المال واكتنازه مفسدة للمرء منذ مولده، إذا لم تكن في سبيل الله ، وما دامت الحياة محدودة الأجل ، فلمن يجمع الجامعون ويكتنز المكتنزون ؟ وقد عبر الطرماح عن ذلك ، وتعجب من ذلك أكبر العجب وتساءل : كيف يجمعونه ويكنزونه ، ولن يغني عنهم عند الله مثقال ذرة ، ويتركون أموهم للورثة القاعدين . ثم يستخلص قاعدة يذكر الناس بها مفادها : إن الناس كالزرع متى ينضج يحصد ، ويقول :

عجباً ما عجبت للجامع المال	يباهي به ويرتفده
يوم لا ينفع المخوّل ذا الثر	وة خلانه ولا ولده
يوم يؤتى به وخصمان وسط	الجن والأنس رجله ويده
خاشع الصوت ليس ينفعه	ثم أمانيه ولا لدده
قل لباكي الأموال لا تبك للنا	س ولا يستنع به فنده
إنما الناس مثل نابتة الزر	ع حتى يأن محتصده[1]

ويبدو زجر الشاعر للأغنياء متأثراً ببعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى : { لا يَسْتأخِرونَ سَاعةً ولا يَسْتقْدِمونَ } [2]، وقوله : { يَومُ لا يَنْفَعَ مالٌ ولا بَنُون } [3]، وقوله : { يَوَم تَشهدُ عَلَيهِم ألسنتَهمْ وأيَدِيهم وأرجلهُمْ بِمَا كانوا يَعْمَلون } [4] .

ولعل من يقرأ الأبيات التالية لعمران بن حطان يجد صورة جديدة أخرى تذم المال وجمعه ، دون جعله في سبيل الله ، ذلك أن الإنسان يشغل نفسه ، ويسعى في مشارق الأرض ومغاربها سعياً حثيثاً لتحقيق أكبر ثروة يستطيع تحقيقها ، والشاعر يذّكر أن الإنسان سيعود

---

(1) نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص٣٤ .

(2) سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

(3) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ .

(4) سورة النور ، الآية ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خالياً من كل شيء كما جاء إلى الدنيا خاليًا ، وأنّه سيفارق ما جمع واكتنـــز ، مبتعدًا بنفسه عما يحقق لها الفوز بالجنة ، بعد أن أشغلها بالدنيا سريعة الزوال ، يقول :

وأيقنْتُ أنّهـــا تعـــود كـــما ... كان يراها بالأمس خالقُها

وأنّ مـــا جمعـــت وأعجـــبَها ... مـــن عيشها مرة مفارقُها

وصدّها للشقاءِ عن طلبِ الـــ ... ـجنّـــةِ دنيا الهمّ ماحقها

عبدٌ دعـــا نفسَـــهُ معاتبهـــا ... يعلم أنّ المصـــيرَ رامقُها

يوشـــكُ من فـــرّ مـــن منيتِهِ ... في بعضِ غرّاتِـــهِ يوافقُها[1]

وما دامت هذه صفة المال ، فقد وقف شعراء الزهد جرّاء ذلك متأملين المال ومصدره ومآله ، فيندفعون في إنفاقه بعد أن أيقنوا أنه زائل ولا بقاء إلاّ للعمل الصالح ، وتبيّن لهم أن الناس يجمعون المال لغيرهم لا لهم ، وأنهم يكترونه للورثة الذين ينفقونه في سبل شتى ، وإن جامع المال لا يغني عنه ماله عند الله شيئاً ، بل يكون وبالاً عليه ؛ فيحاسب من أين اكتسبه ، وفيمَ أنفقه ، وبذلك تكون حياته معادلة خاسرة ، إذ يفشل في حياته الدنيا ، فلا ينفق ما يجمع ، ويخسر عند الحساب يوم الحشر ، إذ يرحل بلا زاد يتزوّد به ، وفي هذا يقول سابق البربري :

فحتى متى تلهو بمنـــزل باطل ... كأنك منه ثابت الأصل قاطن

وتجمع ما لا تأكل الدهر دائباً ... كأنك في الدنيا لغيرك خازن [2]

ويعتقد سابق البربري كذلك ، أننا بالإضافة إلى جمع المال الذي نتركه لذوي الميراث ، فإننا نبني البيوت ونشيّد القصور لغيرنا كذلك ، ونتركها لخراب الدهر يحل فيها ، والنفـس تتهالك على الدنيا ، لكنها لو أدركت لوجدت أن السلامة منها ترك ما فيها ، لأنه المـــوت مصيرها المحتوم ، وأمر الفناء لا يختلف فيه اثنان ، يقول :

---

(١)نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص١٨٨ ــ ١٨٩ ، وينظر : الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣١٤ .

(٢) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللحتوفِ تربّي كلُّ مرضعةٍ ... وللحسابِ برى الأرواحَ باريها

لا تبرحُ النفسُ تنعى وهي سالمةٌ ... حتى يقوم بنادي القوم ناعيها[1]

أما محمد بن عبد الله فيعالج في أبياته التالية فلسفة الإنسان البخيل في الحياة الذي يحرم نفسه من كل شيء ويجمع المال ويكنزه فيكون ذلك وبالاً عليه ، ولن ينتفع منه ؛ لأن مصيره للوارثين القاعدين ، وهي فلسفة مأخوذة من واقع الحياة ، وتتكرر في كل زمان ومكان ، يقول :

والمرء يحرم نفسه ... ما لا يزال به حزينا

وتراه يجمع ماله ... جمع الحريصين الوارثينا

يسعى بأفضل سعيه ... فيصير ذاك لقاعدينا[2]

ويرى أبو الأسود الدؤلي أن جمع المال يعود على صاحبه بالضرر ؛ إذ أنه يُحرمه ويتركه للورثة ، ويلقى مع ذلك الذل في الدنيا والخزي والعار يوم الحساب ؛ لأنه سيرحل فقيراً لم يتزوّد بأعمال صالحة تنفعه ، ويقارن الشاعر بين جامع المال وجامع العلم ، فيرى أن الثاني متقدّم على الأول ، إذ أن صاحب المال يخشى على ماله التلف والسلب ، أما جامع العلم فلا يخشى تلفاً ولا سلباً ، إذ يقول :

قد يجمع المرء مالاً ثم يُحرمه ... عما قليل فيلقى الذل والخربا

وجامع العلم مضبوط به أبداً ... ولا يحاذر منه الفوت والسلبا[3]

وقد يذهب بعض الزهّاد إلى ما هو أبعد من ذلك في طرح فلسفتهم في الزهد ، فيذكر بعضهم أن عدم الاهتمام بالطعام والشراب واللباس وعدم الاعتناء بالنفس واحتياجاتها قضية هامة للإنسان العابد كي ينفّذ كل ما يقع على عاتقه من عبادة وتقوى وتقرب إلى الله تعالى ، لذلك يقرر مسعر بن كدام أن قلة الطعام أمر ضروري للعابد ، لأنه يعين على الصلاة والعبادة ، أما كثرة الطعام فهي تعين على النوم والسُّبات والكسل ، لذلك يرفض هذا الشاعر

---

(1) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٣٢ .

(2) الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٢٩٨ .

(3) الدؤلي أبو الأسود : ديوان أبي الأسود ، ت محمد حسن آل ياسين ، دار الكتاب الجديد ـ بيروت ، ط١ ، ١٩٧٤م ، ص١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزاهد أن يكثر من الطعام والشراب بغية العبادة والتقوى ، ويعلن أنه يكتفي بالخبز والماء الذي يجعله فقط قادراً على القيام بواجبه تجاه خالقه ، إذ يقول :

وجدْتُ الجوعَ يطرده رغيفٌ ... وملء الكفِّ من ماءِ الفراتِ

وقِلُّ الطعمِ عونٌ للمصلي ... وكثرُ الطعمِ عونٌ للسباتِ[1]

وقد يكتفي الشاعر بما يلزمه لمواصلة العيش فقط ، كأن يشبع بطنه طعامًا من تمرٍ وماءٍ فقط ، يقول :

وما العيشُ إلاّ شبعةٌ وتشرّقٌ ... وتمرٌ كإخفاقِ الرباعِ وماءُ[2]

والمعنى نفسه نجده عند سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ، الذي يكتفي من هذه الدنيا برغيف من الخبز وملء كف من الماء والظل ، يقول :

حسبُ الفتى من عيشِهِ ... زادٌ يبلغه المحلا

خبزٌ وماءٌ باردٌ ... والظلُّ حين يريدُ ظلا[3]

- **قضية الموت :**

من القضايا الهامة التي وجدت لنفسها مكانا في أشعار الزهاد في هذه الحقبة ، وارتبطت بتحقير الدنيا ، قضية الموت الذي يفصل بين الحياتين ، والمعبر الموصل بينهما ، وهو الذي يستتر خلفه الترغيب والترهيب ، ويجعل حياة الإنسان قائمة على التخيلات والآمال والتطلعات ، وقد أكثر الشعراء من ذكر الموت والجنائز ، لتكون فكرة الخلاص من الدنيا حاضرة في الذهن دائمًا ، وحتى يعمل الإنسان كل ما في مصلحته بعد ذلك ، خدمة لنفسه في الحياة الآخرة .

والموت قضية تثير الفزع عند الناس ، ومن الشعراء الذين عبروا عن الخوف منها محمد بن يسير* ، الذي صور نفسه وقد حُمل على الأكفّ والناس تدعو له بالرحمة ، وأنهم

---

[1] الزهر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٧٦ .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١٢٣ .

[3] المصدر السابق ، ص١٢٣ .

* شاعر من أهل البصرة كان في عصر أبي نواس ، وعمّر بعده حينًا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سيذكرونه في مجالس كان يشهدها ، والأبيات التالية تعبر بطريقة مباشرة عن مدى الاضطراب النفسي والخوف عند الشاعر ، مستخدمًا بعض العبارات الدارجة في مثل هذه المواقف كـ(ويل) و(يا حسرتي) و (يرحمنا الله وإياه) ، ثم يقرر أنّ الإنسان مهما تطاول به العمر ، فإنّ الموت مصيره المحتوم ، يقول :

ويلٌ لمن لم يرحمِ اللهْ ... ومن تكونُ النارُ مثواهُ
يا حسرتي في كلِّ يومٍ مضى ... يذكرني بالموتِ وأنساهُ
من طالَ في الدنيا عمره ... وعاشَ فالموتُ قصاراهُ
كأنّه قد قيل في مجلسٍ ... قد كنتُ آتيه وأغشاهُ
صار اليسيريُّ إلى ربِّهِ ... يرحمنا الله وإيّاهُ[1]

أمّا عروة بن أذينة الكناني* ، فيصور نفسية الناس وكيفية انشغالهم بالحياة الدنيا ، متناسين الموت والفناء ، فلا يتذكرونه إلا عندما يشاهدون جنازة ، فيصيبهم الخوف والفزع ، ويتذكرون مصيرهم ، فهم كالدواب التي تستمتع في رتعتها في المراعي ، ولا تذكر الحيوان المفترس إلا إذا هاجمها ، فترتاع قليلا ثم تعود إلى رتعتها من جديد ، وكذا نفسية الناس الذين تسحرهم الحياة الدنيا ، يقول :

نراعُ إذا الجنائزُ قابلتْنا ... ويحزننا بكاء الباكياتِ
كروعةِ ثلةٍ عفار ذئبٍ ... فلما غاب عادت راتعاتِ[2]

وقد تكرر هذا المعنى عند الخنساء بقولها :

ترتع ما غفلتْ حتى إذا ادّكرت ... فإنّما هي إقبالٌ وإدبارُ[3]

وقال آخر :

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص٣٩ ــ ٤٠ ، وينظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١١٣ ، والمزرباني : معجم الشعراء ، ص٣٥٣ .

* شاعر من أهل المدينة وهو معدود من الفقهاء والمحدثين .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١٣٠ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٠٤ .

[3] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١٣ ، ص١٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نراعُ بذكرِ الموتِ في حينِ ذكرِهِ وتعترضُ الدنيا فنلهو ونلعبُ
نحن بنو الدنيا خُلقنا لغيرِها وما كنت منه فهو شيء محببُ[1]

ويحذر الفقيه سالم بن عبد الله ، وهو من فقهاء المدينة السبعة ، من الدنيا ، ويذكر بالموت ، ويعظ به ، فيرى انّه نازلٌ بكلّ حي ، فلا ينفعه الحراس ولا الكتائب لمن امتلك الحراس والكتائب ؛ لأنّه عند الموت سوف يهجر الحاجب عمله ، ويصبح صاحب الحراس والكتائب محبوسًا في القبر ، ويذكر الناس بادئًا بنفسه بالموت والحساب يوم الحشر ، ويقرر أنّ من أراد السعادة لنفسه ، فليكسبها بالعبادة والتقوى والعمل الصالح ، يقول :

ما سالمٌ عمّا قليلٍ بسالمٍ وإن كثرتْ أحراسُهُ وكتائبُهْ
ومن يكُ ذا بأسٍ شديدٍ وحاجبٍ فعمّا قليلٍ يهجرُ البابَ حاجبُهْ
واصبحَ مسرورًا به كلُّ كاشحٍ وأسلمه أحباؤه وأقاربُهْ[2]

وقد فزع عمر بن عبد العزيز من الموت ، فأعرض عن الدنيا بعد أن أقبلت عليه ، وعاش حياة الزاهد المتقشّف ، فقد روي أنّه لم يكن له سوى قميص واحد ، فكان إذا غسلوه جلس في المنزل حتى ييبس [3]، وقد فتح الباب واسعًا أمام الشعراء الذين يقولون في الزهد ، وضيّق على الذين يقولون في غيره ، وجعل حتمية الموت نصب عينيه ، واستصغر الدنيا ، ورأى أنّ ملكه لا يساوي شيئًا ، إذ لا يدوم ، وما قيمة ملك لا يدوم ، يقول :

أنا ميّتٌ وعزّ من لا يموتُ قد تيقنْتُ أنني سأموتُ
ليس ملكٌ يزيلُهُ الموتُ ملكًا إنّما الملكُ ملكُ من لا يموتُ[4]

وليس أدلّ على فزعه من الموت من ذكره إيّاه خمس مرّات في هذين البيتين .

وقد اتخذ علي بن الحسين من ذكره الموت والقبر والحساب ما يزجر به الإنسان عن التهالك على الدنيا ونعيمها الزائل ، يقول :

---

[1] الأندلسي ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص١٢٦ .
[2] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٩٣ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٠٢ .
[3] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٧٧ .
[4] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٨٤ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ذكرِ هولِ الموتِ والقبرِ والبلى عن اللهوِ واللذاتِ للمرءِ زاجرُ[1]

ويثير وضاح اليمن الفزع في النفوس عندما يصور الميت ساعة دفنه ، حين تُلفّ ساقاه على بعضهما البعض ، إذ إنّ الموت الذي يتساوى فيه الناس نهاية كل حي ، فلا يفرق بين العامة والخاصة والأغنياء والفقراء ، إذا ما وارى التراب جثامينهم ، يقول :

وللأحياءِ أيامٌ تقضّى يُلفّ ختامها سوقًا بسوقِ

فاغناهم كأعدمِهم إذا ما تقضّت مرّةُ العيشِ الرقيقِ

كذلك يُبعثون وهم فرادى ليومٍ فيه توفيةُ الحقوقِ[2]

- قضية الوعظ :

تعتبر قضية الوعظ من القضايا التي تناولها شعراء الزهد في أشعارهم في هذه الفترة ، وقد ارتبط الحديث عن تحقير الدنيا بالوعظ والدعوة إلى العمل الصالح ، والأبتعاد عن التهالك على الدنيا الزائفة ، لا سيما وقد وجد في العصر الأموي من الفساد واللهو والترف ما يدعو إلى الوعظ والإرشاد إلى سبيل الرشاد ، فكان الزهّاد والعبّاد يأخذون على عاتقهم دعوة الناس إلى ترك ما هم فيه من الغيّ والضلال ، فكان القصّاص والوعّاظ والخطباء والشعراء يؤدّي كل منهم دوره في هذا المجال .

ومن هؤلاء الوعّاظ الخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقد وعظ الناس ، دون أن ينسى نفسه ، بالأبيات التالية التي شبه فيها سعي الإنسان للحصول على ما في الدنيا من لذّات فحسب بالبهائم :

أيقظانُ أنت اليومَ أم أنتَ نائمُ ؟ وكيف يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ ؟

فلو كنت يقظانَ الغداةَ لحرّمتْ محاجرَ عينيك الدموعُ السواجمُ

أصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنتْ إليك أمرٌ مفظعاتٌ عظائمُ

وتكدح فيما سوف تكره غبّا كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ[3]

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٨١ .

(2) الأصفهاني : الأغاني ، ج٦ ، ص٢٢٩ .

(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ الكلمات والعبارات التي تخيرها عمر في الأبيات ، تلعب دورًا هامًا في إيقاظ الضمائر وكبح جماح الشهوات فيمن طغت عليه شهواته ، فهو يكثر من الاستفهام ، كما هو واضح في البيت الأول ، ويستخدم أساليب بلاغية كثيرة كالشرط والنفي وغيرها ، مما يجعل لذلك كبير الأثر في الوعظ وإثارة الخوف والفزع لدى الناس من جزاء الفسق والضلال .

إنّ شعور النفس بضيق الدنيا ، وبأنّ هناك حياة أخرى أرحب وأوسع يجب السعي إليها ، خليق بأن يجعل المؤمن يقف مع نفسه يعاتبها ويحاسبها ويذكرها بمصيرها المحتوم ، فعلامَ التهالك على الدنيا وبذل النفس من أجلها ؟! وحتى متى إنفاق الموت في غير طاعة الله ؟! . ومن ذلك ما عبر عنه محمد بن يسير عندما وقف مع نفسه ، ورسم لها صورة تخيلها بعد مماته ، وهو لا يدري كيف ستكون ، وماذا سيقول الناس الذين كان يرتاد المجالس معهم ؟! وما ذلك إلا ليحث نفسه قدمًا في طاعة الله والحرص على العمل الصالح ، يقول :

عالمًا لا أشكُّ أنّي إذا متُّ إلى عدنٍ أو عذابِ السّعيرِ
كلّما مرّ بي على أهلِ نادٍ كنتُ حينًا بهم كثيرَ المرورِ
قيل : من ذا على سريرِ المنايا ؟ قيلَ : هذا محمدُ بنُ يسيرِ[1]

وواضح من هذه الأبيات صورة الخوف والفزع التي يعانيها الشاعر ، فكأنّه يحسّ أنّه في مكان ليس له ، وأنّه يتمتع بمال غيره ، فيعجب من رضى نفسه بهذه الحال ، وهو يعلم إلى أين المآل ، ثم يصور نفسه وهو في طريق رحيله بين الحياتين .

وهذا علي بن الحسين يعظ ويذكر من يتمسك بالدنيا وينسى الآخرة التي هي خير وأبقى بضرورة التزود بالعمل الصالح الذي لو رحل بدونه لم يجد شفيعًا عند الله يوم الحساب :

تخرّبُ ما يبقى وتعمرُ فانيًا فلا ذاك موفورٌ ولا ذاك عامرُ
وهل لك إن وافاك حتفُك بغتةً ولم تكتسب خيرًا لدى اللهِ عاذرُ[2]

---

[1] الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١١٨ .

[2] الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبين كثير من أشعار الزهد في هذه الفترة فلسفة واعية للحياة ، وقياسها على تجارب معاشة ، فالشاعر يطرح في أبياته خلاصة تجربته ، أو تجارب الآخرين بشكل عملي واضح ، يقنع العقل والأجيال اللاحقة أنّك تخرج من الدنيا بلا شيء إلا العمل الذي قدمته فيها ، وإن كانت أعمالك لا ترضي الله ، فلا تدري ماذا تفعل .

وفي البيتين التاليين يتضح أنّ الإنسان قد يستمتع بالحرام ، وينال لذة آنية منه ، لكنّ مدّتها قصيرة سرعان ما تزول ، ويبقى إثمها وعارها أبد الدهر ، ويكون مصير صاحبها النار :

تفني اللذاذة ممن نال صفوتها ... من الحرامِ ويبقى الإثمُ والعارُ

تبقى عواقب سوء من مغبّتها ... لا خيرَ في لذةٍ من بعدها النارُ[1]

وهذا مروان بن الحكم يعظ ويحذر من الدنيا مستخدمًا أسلوبًا بلاغيًّا يدلّ على إصراره وتيقنه من حقيقة ما يقول ، فيستخدم أفعال الأمر ، ولعلّه يقوم على أسلوب تعليمي ، يحاول من خلاله ترسيخ فكرة التحذير من الدنيا وغرورها ، يقول :

اعمل وأنت من الدنيا على حذرٍ ... واعلم بأنّك بعد الموتِ مبعوثُ

واعلم بأنّك ما قدّمتَ من عملٍ ... محصى وما خلّفْتَ موروثُ[2]

ومما هو لافت للنظر تناول الخوارج لشعر الزهد في هذا العصر ، إذ كان تذوقهم ونظمهم له ينطلق من عمق ضيقهم وضجرهم من الدنيا ، فالحالة السياسية في الدولة الأموية ، وما لحق بهم من قتل وتشريد ، بالإضافة إلى فشلهم في تحقيق النصر السياسي والعسكري الذي كانوا يتمنونه ، جعل الأرض تضيق عليهم بما رحبت ، فكادوا يشعرون بحشرجة الروح ضيقًا وغيظًا .

ولقد تميز شعر الزهد عند الخوارج باختلاطه بالحماسة والاندفاع للقتال ، بهدف نيل الشهادة والفوز بالجنة التي وُعد بها المتقون ، وهروبًا من الواقع الأليم الذي ألمّ بالمسلمين ، فكان اندفاعهم عقائديًا مرتبطًا بالتوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر ، وكأنّ أولوية المقاتل نيل الشهادة في سبيل الله ، لا تحقيقًا للنصر فحسب ، بل أخذت هذه الفئة على عاتقها

---

(1) الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٧٦ .

(2) نبال تيسير خماش : شعر الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي ، ص١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعديل ما انحرف من مسار المسلمين ؛ لأنّهم يعتبرون أنفسهم أكثر الناس إيمانًا ، وأكثرهم صوابًا ، لذلك يندفع الشاعر يحاور نفسه ، ويحثها على القتال ، محاولاً إقناعها بأنّ الحياة فانية زائلة ، فيتمنى أن يلقى شهداء الخوارج في الجنة ، أمثال عاصم وبيهس وكهمس ، يقول أحد الخوارج مرتجزًا :

يا نفسُ من طولِ الحياةِ ملّي
وعيشك المنقطع المولّي
علّي ألقى عاصمًا لعلّي
في جنّةٍ عاليةٍ وظلّ
وبيهسًا وكهمس المصلّي[1]

وهذا قطري بن الفجاءة يخاطب نفسه ويحاورها بحرارة الإيمان بالله تعالى ، والتوكل عليه وبقضائه وقدره ، ويرفعها لقتال الأبطال ، ويقول لها : لو اردْتِ البقاءَ يومًا واحدًا عن القدر المكتوب لك ، فلن تطاعي ، ويحاول أن يذكرها أنّ الخلود والبقاء أمر مستحيل وغير مستطاع ، وأنّ الموت مصير كلّ إنسان ، ثمّ يستخلص قاعدةً تقوم عليها فلسفة الحياة ، وهي أنّ الإنسان إذا لم يمت بالسيف مات بغيره ، ومن لم يمت بالقتال يسأم ويهرم ، ويكون مصيره الزوال ؛ لذلك لا ضرورة للتمسك بالحياة والخوف من منازلة الأبطال ، يقول :

أقول لها وقد طارتْ شعاعًا ... من الأبطالِ ويحك لن تراعي
فصبرًا في مجالِ الموتِ صبرًا ... فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ
ولا ثوبُ البقاءِ بثوبِ عزٍّ ... فيطوي عن أخي الخنعِ اليراعِ
سبيلُ الموتِ غايةُ كلِّ حيٍّ ... فداعيه لأهلِ الأرضِ داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنونُ إلى انقطاعِ[2]

وهناك لوحة أخرى من الحوار النفسي عند شعراء الخوارج ، تتضح في الصراع الذي دار بين الحويرث الراسبي ونفسه ، إذ يظهر الصراع بشكل كبير بين رغبة النفس بالحياة ، وهذا

---

[1] إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ص٢٢١ .
[2] المصدر السابق ، ص١٢٢ — ١٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمر لا يختلف فيه اثنان ، فلا تموت نفس وهي راضية عن الموت ؛ لأنها تحاول جهدها الحفاظ على البقاء بغريزتها الفطرية ، ورغبة أخرى في المقابل وهي رغبة الشاعر في الخلاص من الدنيا واستعجال الموت لتحقيق الشهادة ؛ فالدنيا عنده ذمية دنيئة لا تستحق البقاء عليها ، يقول :

أقول لنفسي في الخلاء ألومها ... هبلت دعيني قد مللت من العمر

سأركب حوباء الأمور لعلني ... ألاقي الذي لاقى المحرّق بالقصر[1]

ويظهر في الحوار الداخلي استخدام الشاعر لعبارات تدل على التوبيخ والتحقير ؛ وذلك لدفعها للشهادة وبث الحماس فيها .

وقد تكرر حساب النفس وعتابها على حساب الدنيا والتردد في القتال عند كثير من شعراء الخوارج الذين زهدوا في الدنيا ، ، فلا يلبث أحدهم يشعر بميل نفسه للدنيا ، أو يعجبها نعيمها حتى يعاتبها ويوبخها ؛ لأنه لا يجد مبرراً لذلك ، فحياتهم ضيقة ، وهم ملاحقون سياسياً ، ويشعرون بأن المسلمين بفتنهم واقتتالهم خرجوا عن سبيل الرشاد ؛ لذلك رغبوا في الخلاص ، وباعوا الدنيا برضا الله سبحانه وتعالى آملاً بالجنة ، ويقول عبيد بن هلال اليشكري :

لعمري لقد بعنا الحياة وطيبها ... برضوان ربٍّ بالخلائقِ عالمُ[2]

ثانيًا : التوكّل :

لعل التوكل من القضايا التي شغلت بال الشعراء الزهاد في العصر الأموي ؛ لأنّ التوكل على الله مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالإيمان به ، وهو حصاد التعاليم الإسلامية الحنيفة التي انعكست في نفوس المسلمين من الصحابة التابعين ، فكونت لديهم فلسفة إسلامية ومنهج حياة .

والتوكل هو توكيل الأمور كلها لله تعالى ، يوجهها حيث يشاء ، فلا يؤثر الإنسان ، مهما حاول ، على مسارها ؛ لأنّ الله يقدّر ما يشاء ويفعل ، لذلك دعا الشعراء إلى الترفع عن

---

[1] المصدر السابق ، ص١٩٥ .

[2] المصدر السابق ، ص١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدنيا وما فيها ، وعن المبالغة في السعي لتحقيق النفوذ والكسب ؛ لأنّ ذلك موكّل بيد الرحمن ، وليس للمرء يد فيه .

وقد ركز شعراء الزهد في العصر الأموي فيما يتعلق بالتوكل على القضايا التالية :

*** الدعوة صراحة إلى التوكل باستخدام اللفظ نفسه :**

لم يعمد شعراء الزهد إلى الحديث عن التوكل بمضمونه فحسب ، بل تحدثوا عنه في أشعارهم باستخدام لفظة (التوكل) نفسها ؛ لما في ذلك من راحة للنفس ورضا ، فما يريده الله على المؤمن أن يرضى به ؛ لأنّ ما كُتب على المرء سيناله لا محالة ، وممن أكد هذه الفكرة من الشعراء أبو الأسود الدؤلي ، حيث يقول :

إذا كنْتَ معنيًّا بأمرٍ تريدُهُ ... فما للمضاءِ والتوكّلِ من مثلِ

توكّل وحمّل أمرَكَ اللهَ إنّما ... تُرادُ به آتيكَ فاقنعْ بذي الفضلِ[1]

والتوكل على الله يستدعي بالضرورة الترفع عن الناس ، وهذا لا يتضمن في معناه التكبر عليهم ، بل عدم الاستعطاء منهم ، أو استعطافهم في حاجة ما ؛ إذ ما دام توكلهم على الله ، وما داموا يؤمنون بأنّ الله هو القادر على كل شيء ، وجب عليهم أن يسألوا الله وحده دون سواه ، فهو من يقلب أمور العباد ، ويسير حياتهم حيث أراد لها أن تسير ، وليس لامرئ منهم قدرة على تغيير مسار حياته ، وما يقوم به من اجتهاد وسعي ، فما ذلك إلا لأنّ الله قد كتب له أن يسعى ويجتهد ، ويدعو الله سبحانه وتعالى ، فيستجيب له ، وقد عبر أبو الأسود الدؤلي عن هذه القاعدة الربانية بأسلوب تعليمي ، يوضح من خلاله كيفية التوكل على الله وأهميته ، من خلال الاعتماد عليه وحده ، وطلب الحوائج منه ، أمّا من يطلبها من غيره ففيه ضعف وخور ، يقول :

وإذا طلبْتَ من الحوائجِ حاجةً ... فادعُ الإلهَ وأحسن الأعمالا

فليعطينّكَ ما أرادَ بقدرةٍ ... فهو اللطيفُ لما أرادَ فعالا

إنّ العبادَ وشأنَهم وأمورَهم ... بيدِ الإلهِ يقلّبُ الأحوالا

فدع العبادَ ولا تكن بطلابِهم ... لهجًا تضعضعُ للعبادِ سؤالا[2]

---

[1] الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣١ .

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستهجن زهاد هذا العصر ممن يرضون بأدنى درجات التدين ، ويقتنعون بها ، وقد وصف الزهاد هؤلاء الناس بضعف الإيمان والاغترار ببريق الدنيا الخادع الذي شغله عن أداء واجباته الدينية ، وهذا ما تحدث عنه الشعبي ، إذ عد الدنيا ملكًا للملوك ، يتهافتون عليها ، ويتفانون فيها ، ويطمعون بها ؛ لذلك ينصح الناس ، ويدعوهم إلى تركها ، والاستغناء عن دنيا الملوك ، كما استغنوا هم عن الدين ، يقول :

أرى أناسًا بأدنى الدينِ قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا بالعيشِ بالدونِ
فاستغنِ باللهِ عن دنيا الملوكِ كما ... استغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ[1]

ولا ينصرف التوكل إلى القعود عن التكاسل عن القيام بكل ما يلقى على عاتق المرء من واجبات ، وليس التوكل مدعاة لتثبيط العزيمة ، بل على نقيض ذلك ، فهو يدفع الإنسان إلى النشاط والعمل بجد وقوة ، دون خوف أو خجل ، فيشتد في سفره ويندفع في جهاده ، ولا يخشى المخاطر والمهالك ، لأنّ ما كُتب له سيناله ، فما عند الله باق لا يتغير ، وما عند الناس يتعرض للزوال والنقص والتغيير ، والزاهد يؤمن دومًا بأنّ القتال لا يقصّر العمر ، وأنّ الحلّ والترحال لا يدفع المنية أو يقرّبها ، وبهذا يرى الحكم بن عبدل الأسدي* أنّه لم يجد كالدين يعتصم به ، وأنّ الرزق موكول لله تعالى ، فقد ينال المقيم الذي لا يبرح الحي الذي يسكنه ، ويُحرمه الذي يسعى خلفه في مشارق الأرض ومغاربها ، والشاعر هنا يطرح الحقائق التي تطمئن لها نفسه ، وتتجه للتوكل على الله ، حيث يقول :

لم أجد عروةَ الخلائقِ إلاّ الد ... ينَ لما – اعتبرْتُ – والحسبا
وقد يُرزقُ الخافضُ المقيمُ وما ... شدّ بعنسٍ رحلاً ولا قتبا
ويُحرمُ المالَ ذو المطيّةِ والر ... حلِ من لا يزالُ مغتربا[2]

- **السعي في طلب الرزق :**

إنّ الرزق معنًى هامٌ من معاني التوكل ، وقد بين الله سبحانه وتعالى أنّه مقدر من عنده ، قال جل وعلا : { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ }[3] ، فليس لأحد أن يزيد في رزقه أو

---

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٣ ، ص٢٢١ .

* من شعراء بني أمية ، ولد في الكوفة ، نفاه عبد الله بن الزبير من العراق إلى دمشق

(2) الأصفهاني : الأغاني ، ج٧ ، ص ٤٠٢ .

(3) سورة الذاريات ، الآية ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ينقص منه ؛ لأنّها قضية مسلمة بيد الرحمن ، فهذا عمران بن حطّان يلقي درسًا تعليميًا في أصول الزهد والتوكل على الله ، إذ لا رزاق إلا الله ، ولا مانع إلا هو ، فإذا طلبت حاجتك منه ، فقد استغنيت به عن غيره من العباد الذين يُرزقون من فضله ، وما هم برازقين ، وليس لهم قدرة على التحكم في الرزق ومنحه وتوجيهه ، يقول :

أيها المادحُ العبادَ ليُعطى ... إنّ لله ما بأيدي العباد

لا تقلْ في الجوادِ ما ليسَ فيهِ ... وتسمّي البخيلَ باسمِ الجوادِ[1]

وقد وضع شعراء الزهد قاعدة ترجع في أصلها للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، تخفف من حدة اضطراب النفس في سعيها وتهالكها على المال وتوفيره ؛ مما يجعل المرء عبدًا للدنيا ومكاسبها ، إذ إنّ طبيعة النفس البشرية تتميز بالغيرة والحسد في تمني أخذ ما في أيدي الآخرين من رزق ، أو أنّها تحاول امتلاك مثل ما يمتلكون ، فيشتد الإنسان سعيًا في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا أنّه لا ينال إلا ما هو مقدر له ، دون زيادة أو نقصان ، فمن كان قاعدًا في بيته لا ينقص رزقه بقعوده ، ومن اشتدّ في السعي ، لا يزيد رزقه بسعيه ، وليس هذا معناه التقاعس عن طلبه ، بل الجد والسعي الحثيث له ، مع الإيمان بأن الرزق موكول لله تعالى[2] .

وللرزق حديث متداول بين الشعراء الزهاد ، ولا عجب في ذلك ؛ لأنّ المال وكسبه مدار صراع بين البشر ، وقد ركز هؤلاء الشعراء على انتهاء الصراع على المال وعلى الرزق ، لو علموا أنّه لا يد لهم فيه ، وأنّ ذلك بيد الله تعالى وحده ، دون سواه ، ومن يعتقد بعكس ذلك فقد ضلّ سبيله ، وهو كمن يتزلق من مكان مرتفع ، ويودي بنفسه في الهاوية ، يقول الحسين بن علي في ذلك :

من ظنّ أنّ الناسَ يغنونَهُ ... فليس بالرحمنِ بالواثقِ

---

[1] إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ص٣٦ .

[2] ينظر قول الحكم بن عبدل في الأغاني ، ج٧ ، ص٤٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو ظنّ أنّ المالَ من كسبِهِ زلّت به النعلاتُ من حالقِ[1]

ولعلّ ما قاله عروة بن أذينة في قضية الرزق من أروع ما قيل في هذا العصر من أشعار ، فقد تيقن أنّ رزقه من الله تعالى ، وأنّ هذا الرزق سوف يأتيه ، فإذا سعى له حصل عليه ، وإن شق عليه ذلك ، وإن لم يفعل ، جاءه رزقه دون سعي ، ومن غير عقبات ، وقناعته هذه تؤكد أنّ الله موكل بالإنسان ، وأنّه لا يتركه بلا رزق يعيش به ، وما الطمع إلا نقص ورذيلة ، والعفة شرف ورفعة ؛ فلذلك يجب أن يسعى الإنسان لما لا يُعاب به عرضه ودينه ، يقول :

لا خيرَ في طمعٍ يدني لمنقصةٍ وعفّةٍ من قوامِ العيشِ تكفيني

لا أركبُ الأمرَ تزري بي عواقبُهُ ولا يُعابُ به عرضي ولا ديني

كم من فقيرٍ غنيٍّ النفسِ تعرفُهُ ومن غنيٍّ فقيرِ النفسِ مسكينِ[2]

*** الإيمان بالقضاء والقدر :**

وهو من المعاني التي ينطوي عليها التوكل ، وتسليم الأمور بيد الله ، ويعد زهاد هذا العصر الإيمان بالقضاء والقدر ، والقبول بسراء الأمور وضرائها ، ركنًا أساسيًا من أركان التوكل على الله ، فكل ما يصيب المرء مكتوب له ، مقدر من لدن عزيز حكيم .

وقد تناول سابق البربري هذه القضية في شعره ، فقد كان يفد على عمر بن عبد العزيز واعظًا ناصحًا ، ومن ذلك أنّه جاء إليه مرة يذكره بالقضاء والقدر ، وضرورة الإيمان بهما ، في أبيات شعرية جميلة ، بأسلوب تعليمي ، أكثر فيه من أفعال الأمر ، وموضوع هذه الأبيات التحذير من الاغترار بالدنيا ، لأنّ سرورها يعقبه كدرها وتعاستها ، وأنّ نعيمها لا يدوم ، يقول :

إن كنتَ تعلمُ ما تأتي وما تذرُ فكن على حذرٍ قد ينفعُ الحذرُ

واصبر على القدرِ المقدورِ وارضَ به وإن أتاك بما لا تشتهي القدرُ

فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسرُّ به إلا وأعقبَ يومًا صفوه كدرُ[3]

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٨ ، ص٢٠٩ .

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٨ ، ص٣٢٤ ــ ٣٢٥ .

[3] الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعبر ثابت قطنة * عن إيمانه بفلسفة القضاء والقدر التي ينبغي للمرء الأخذ بها ، وتمثلها في حياته ، وعليه ألا يجزع مما هو مكتوب له ؛ لأنّه لا مرد له ، يقول :

وما قضى اللهُ من أمرٍ فليس له ... ردٌّ وما يقضِ من شيءٍ يكن رشدا[1]

وتدعو ليلى الأخيلية إلى التسليم بقضاء الله ، وتجعل تحقيق ذلك بضرورة التوكل على الله قبل عقد النية على القيام بأي عمل ، وقد تأثرت في ذلك بالقرآن ، وخاصة في البيت الثاني ، إذ تقول :

فلا تكذبْ بوعدِ اللهِ وارضَ به ... ولا توكل على شيءٍ بإشفاقِ

ولا تقولَنْ لشيءٍ سوفَ أفعلُهُ ... قد قدّرَ اللهُ ما كلُّ امرئٍ لاقِ[2]

ومن خلال هذه الأبيات وما قبلها ، نتبين أنّ زهاد هذه الحقبة قد آمنوا بالله وتكلوا عليه في شتى مناحي حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية ، فقد آمنوا بأنّ أمور معاشهم موكولة بيد الله ، وأنّه لا مجال للاهتمام بمصالحهم المادية الشخصية الدنيوية ، وزادوا من الإقبال على الحياة الآخرة ؛ أملاً أن تكون دار خلاص من الدنيا وجحيمها ، وأعتقد أنّ الإغراق في الزهد ، جاء استجابة وانسجامًا مع ما يلاقونه من كدر الدنيا ونكدها ، وهروبًا مما يعايشونه من انفتاح اجتماعي ، وانغماس في الملاهي والملذات الفاسدة ، وتهتك في الروح الإيمانية .

ثالثًا : قضية التذكير بالآخرة :

لقد وقف المسلمون من الآخرة وقفة تأمل وتفكر ، وراجعوا ما جاء في القرىن الكريم من حديث عن الجنة والنار والحساب والعقاب يوم الحشر ، وكان لذلك حضور بارز في ذهن المسلم ، إذ انشغل باله بمصيره بعد الموت ، فإلى أين المآل ؟! وما هو المصير المرتقب؟! .

ولقد شكل يوم الحشر موعدًا ، يترقبه المسلمون ، ويتمنون الوصول إليه ، وشكل في الوقت نفسه موعدًا مربكًا لمن كثرت آثامه وذنوبه ، فهو شبح يطارده ، ويرعبه ، في كل يوم من أيام حياته ، وكان للقرآن الكريم والسنة النبوية الأثر البالغ والكبير في تبيان الكثير من الحقائق الغيبية ، والتي لا يعرف كنهها الإنسان إلا بعد البعث ، فقد وصف الجنة والنار بشكل

* ثابت بن كعب العتكي ، من شجعان العرب ، أصيبت عينه في الحرب في خراسان ، فجعل عليها قطنة عُرف بها .

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص٢٧٠ .

[2] الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٥٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دقيق ومذهل ، لا يستطيع العقل البشري تصوره ؛ لأنّه فوق القدرات البشرية ، إلا أنّه علم الناس أنّ حياتهم الدنيا ليست هي الحلقة الأخيرة ، وأنّها ليست كل شيء ، بل هناك حياة أخرى تنتظرهم بعد الموت ، فكان لهذا دور في إثارة الهواجس والمخاوف في نفس المسلم عند القيام بأي عمل من أعمال حياته ؛ إذ إنّه يستشعر الله معه ، الذي يراقبه في السراء والضواء ، فيطمئن إلى أنّه يجازي الحسنة بعشرة أمثالها ، وأنّ السيئة لها مثلها ، فيندفع في عمل الخير ، وينصرف عن الشر ؛ أملا في كسب الدار الآخرة ، ومن ثقلت موازينه في الشر والإثم ، تمنى ألا يموت ، وألا يلقى ربه ، خوفًا من هول ما سيلقى من حساب عسير ، يقول تعالى : { إنّ الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون }[1] ، وقال جل وعلا : { وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون }[2] .

وليس من العجب إذن ، إن تجد زهاد المسلمين يقفون عند هذا الموضوع وقفة تأمل وتدارس ، فهم يسعون للجنة ونعيمها ، ويخشون النار وجحيمها ، لا سيما أنّهم يعايشون فترة عصيبة من عمر الدعوة الإسلامية ، إذ أصاب الأمة ما أصابها من اقتتال وتناحر ، ومآل إليه حال المسلمين من فرقة وتشرذم ، فقد انقسم المسلمون أشياعًا وأحزابًا ، عدا عمّا أصاب الكيان الاجتماعي للأمة الإسلامية من تطور سريع واندفاع حضاري ، يوازي اندفاع الحضارات المرموقة في تلك الفترة ، فالعرب البدو الذين اعتادوا على قطع المساحات الشاسعة من المفازات والصحاري اللافحة ، دون أن يروا مبنى عظيمًا ، أو قصرًا مشيدًا ، أو مدينة تدلّ على حضارة ، أصبح في متناول أيديهم كل مظاهر الرقي والتقدم على مختلف الأصعدة ، مع ما يرافق ذلك من ترف ولهو وغنى مادي متدفق ، خاصة أنّ دولة بني أمية غضت الطرف عن تجاوزات الناس الدينية والأخلاقية ؛ لما في التمسك بالدين من خطر على كيانهم السياسي ، والانشغال عنه بالدنيا ومتعها من تحقيق مآربهم التي يسعون إليها ، فأغدقوا الأموال على الناس ، وحققوا لهم كل ما يريدون من زينة الحياة الدنيا .

---

[1] سورة يونس ، الآية ٧ ، ٨ .

[2] سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وردًا على ذلك ، وقف الشعراء الزهاد موقف الوعاظ المذكرين للناس ، يدعونهم إلى خير العمل ، وترك ما هم عليه من الغي والفسق والفساد ، وهم الفئة التي ترفعت بنفسها عن الخوض مع الخائضين ، مكتفين بالعبادة والنسك والزهد ؛ لذلك كان وصف الآخرة ، وما يصيب المسلم من الخوف والخشوع ، من المعاني التي أكثر شعراء الزهد من ترديدها والتعوض لها في أشعارهم ، واصفين يوم الحساب ، داعين الناس إلى الاتعاظ به ، فقد وقف الحصين بن الحمام المري من هذا اليوم موقف الخائف الجزع ، مستعيذًا بالله تعالى من المخزيات التي تنكشف يوم البعث ، يوم ينادى بأهل القبور للنشور ، وتسعر النار للكافرين ، مستلهمًا ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، يقول :

أعوذُ بربي من المخزيا ... تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها
وخفّ الموازينِ بالكافرين ... وزُلزلتْ الأرضُ زلزالها
ونادى منادٍ بأهلِ القبورِ ... فهبوا لتبرزَ أثقالها
وسعرتْ النارُ فيها العذابُ ... وكانَ السلاسلُ أغلالها[1]

والملاحظ على هذه الأبيات ، أنّ الشاعر لا يستعيذ من لقاء ربه يوم القيامة ، أو من يوم الحشر ، بل من الأعمال المخزية الفاسدة الآثمة التي سيحاسب عليها المرء يوم البعث أشد الحساب ، فهو يحب ربه ، ويحب يوم الحشر ؛ لأنّه لا ذنوب عليه ، لكنّه يكره الأعمال الفاسدة ويخاف منها ، فهذا الفرزدق يعلن خوفه من يوم الحساب ، وما سيلقاه من عقاب على ما اقترف من ذنوب ، فلا يخاف من القبر وضيقه فحسب ، بل يمتد خوفه إلى ما بعد ذلك ، يخشى يومًا يُساق فيه بالأغلال ، ويُلقى في نار جهنم ، ويكون ممن يشربون الصديد :

أخافُ وراءَ القبرِ إن لم يعافني ... أشدَّ من القبرِ التهابًا وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامةِ قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاقٌ يسوقُ الفرزدقا
لقد خابَ من أولادِ دارمَ من مشى ... إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا
يُقادُ إلى نارِ الجحيمِ مسربلاً ... سرابيلَ قطرانٍ لباسٍ محرّقا[2]

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص١٥ .

[2] المصدر السابق ، ج٢١ ، ص٣٩٢ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣١٨ ـ ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثر التذكير بالآخرة ، والتحذير من يوم الحساب لدى شعراء الزهد في العصر الأموي ، فحذر بعضهم بعضًا ، وتدافعوا في عمل الخير ، ومما يروى في هذا القبيل ، ما نصح به الحسنُ البصريُّ الفرزدقَ عندما كانا يسيران في جنازة أبي رجاء العطاردي ، فقال الفرزدق للحسن : " يا أبا سعيد ، يقول الناس : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشرهم ، فقال الحسن : لستُ بخير الناس ، ولستَ بشرهم ، ولكن ، ما أعددت لهذا الأمر يا أبا فراس ؟ فقال الفرزدق : شهادة ألا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا عبده ورسوله ، ثم انصرف الفرزدق ، وهو يقول :

نروحُ ونغدو والحتوفُ أمامَنا ... يضعْنَ لنا حتفَ الردى كلَّ مرصدِ

وقد قال لي ماذا تعدُّ لما ترى ... فقيهٌ إذا ما قالَ غيرُ مفنّدِ

فقلتُ له أعددْتُ للبعثِ والذي ... يميتُ ويحيي يومَ بعثٍ موعدِ

فهذا الذي أعددْتُ لا شيءَ غيره ... وإن قلتَ لي أكثرْ من الخيرِ وازددِ

فقالَ لقدْ أعصمتَ بالخيرِ كلِّهِ ... تمسّكْ بهذا يا فرزدقُ ترشدِ[1]

وهذه الأبيات تحمل بين طياتها الدعوة إلى أخذ الآخرة بالحسبان ، وتبين مدى انشغال الناس بهذا الأمر المهم .

ولا يخلو شعر الخوارج من حضور بارز للآخرة في أشعارهم ؛ سعيًا منهم لبلوغ أعلى مراتب الجنة التي تعوضهم عن نكد الدنيا وضيقها ، وقد ترك الموت في نفوسهم لحنًا أليمًا ونغمة حزينة ، ولكنه لم يسلمهم إلى يأس مطلق ؛ لأنّ الموت عندهم نوع من الأمل في دخول الجنة ولقاء الإخوان والأحباب والأبرار والأتقياء الذين تقدموا على الطريق [2]، ولم يعد بالنسبة لهم شبحًا مرعبًا ؛ لذلك كله ، فقد صوروا يوم الحساب في أشعارهم ، مستلهمين ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، مذكرين بأنّ الإنسان لا ينفعه يوم القيامة مال ولا بنون ، وهذا ما عبر عنه الطرماح بن حكيم عندما وصف حال الناس يوم القيامة بقوله :

يومَ لا ينفعُ المخوَّلَ ذا الثر ... وةِ مالُهُ ولا ولدُهْ

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج٢١ ، ص٣٩٢ .

[2] إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ص١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يومَ يُؤتى به وخصماه وسطَ الـ	جنِّ والإنسِ رجلُهُ ويدُهْ
خاشعَ الصوتِ ليس ينـفعُهُ ثَـ	ـمَّ أمـانيـه ولا لدُدُه[1]

ويقسم عمران بن حطان الناس يوم الحشر إلى فريقيْن : فريق منهم يسير إلى الجنة ، وفريق إلى النار ، والاثنان لا يستويان ، ففريق الجنة يحظى بالجنان والحدائق والسعادة والرخاء ، وفريق النار يصلى جهنم ، ويُكبّ على وجهه فيها ، يقول :

هما فريقانِ فرقةٌ تدخلُ الـ	جنّةَ حفّتْ بهم حدائقُها
وفرقةٌ منهم تـدخلُ النـا	رَ فشانـتهم مرافـقُها[2]

ويصف العجاج في إحدى أراجيزه يوم النشور ، ويصفه بأعظم الأيام ، وهو اليوم الذي تُبلى فيه السرائر ، وتعزف فيه كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، والناس فيه سكارى ، وما هم بسكارى ، وألفاظه ومعانيه في هذه الأرجوزة مستمدة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وخاصة الايات التي فصلت القول في يوم الحشر ، يقول العجاج :

أليسَ يومٌ سُمي الخـروجا
أعظمُ يومٍ رجّه رجوجـا
يومًا ترى مرضعةً خلوجا
وكلّ أنثى حملت خدوجا
وكلّ صاحٍ ثملاً حروجـا
ويستخف الحرم المحجوجا
ويهتكُ السماءَ والبروجـا
حتى ترى أديمَها مضروجا[3]

---

(1) المصدر السابق ، ص٣٦٢ ـــ ٣٦٣ .
(2) المصدر السابق ، ص١٨٨ ـــ ١٨٩ .
(3) الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستمر العجاج على هذا النسق في حديثه عن يوم القيامة ، يوم تعرض النفوس على سجل أعمالها ، فتحاسب عليه ، وهو الأمر الذي يرتبط بقناعة الإنسان بأنّ حياته زائلة فانية محدودة لا محالة ، وان يؤمن بأن أعماله تُحصى له ، يقول :

يعلم والعالمُ لا كالأجهلِ ... أنّ حساب العمل المخصّلِ
والأولى (كذا) من غنّ الأمورِ الأولِ ... عن الإلهِ يومَ جمعِ العملِ
يجمعُ الحسابَ والمزبّلِ ... وأنّ خيرَ المخولِ المخوَّلِ
فلذّ العطاء في الحقولِ النزّلِ[1]

وقد يقف الزاهد أثناء حديثه عن الآخرة والبعث والحساب ، مقارنًا إياها بالحياة الدنيا ، فلا ينسى أنّ الدنيا جميلة محببة لنفس الإنسان ، وأنّها تعجّ بالمغريات ، مما يجعل النفس تتردد في تفضيل الآخرة عليها ، لذلك يقف بعض الشعراء الزهاد موقف الناصح للمتمردين ، معبرًا لهم عن سخف الدنيا وزيفها ، فهي ذميمة حقيرة ، إذا ما قورنت بالآخرة ، فماذا تساوي الدنيا عند الله ؟ وماذا تنفع من ينكبُّ عليها ، ويسرف فيها بما يغضب الله عليه ؟ ، فهذا الحسين بن علي ينسج هذه الفلسفة البسيطة بأسلوب تعليمي ، إذ يقول :

لئن كانت الدنيا تُعدُّ نفيسةً ... فدارُ ثوابِ اللهِ أعلى وأنبلُ
وإن كانت الأبدانُ للموتِ أُنشئتْ ... فقتلُ امرئٍ بالسيفِ في اللهِ أفضلُ[2]

فما دامت الأجساد خُلقت للفناء والموت ، فلماذا لا يكون موتها في سبيل الله ؟ أليس ذلك بأفضل وأنبل ؟ .

لذلك ، يفضل الزاهد الجنة وحياتها الكريمة ومتاعها الخالد ، ويترك الدنيا الزائلة ، وإن كانت تحمل الإغراء والحضور الآني غير الغيبي ، فمن كانت حياته تعسة مليئة بالشقاء والمصاعب ، ويسير إلى المساجد تعبًا شعثًا جائعًا ، فإنّ جزاءه الجنة والثواب يوم القيامة ، مما يعوضه أضعافًا مضاعفة عمّا لاقى في حياته الدنيا من تعب وضنك وجهد وشقاء ، وبذلك

---

[1] إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ص١٥٤ .

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٨ ، ص٢٠٩ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يزين الزهاد جوع الدنيا ونكدها للناس مع العبادة الحقة لله تعالى ، ويفضلونها على الفسق والغنى ، حتى لو كانت كلها تعاسة وكمدًا ، يقول في ذلك الحسن بن محمد بن علي :

ما ضرّ من كانت الفردوسُ منزلَهُ ما كان في العيشِ من بؤسٍ وإقتارِ

تراهُ يمشي حزينًا جائعًا شعثًا إلى المساجدِ بين أطمارِ[1]

فعمق الإيمان بالله واليوم الآخر عند زهاد هذا العصر ، جعلهم يزينون الآخرة ويفضلونها على الدنيا ، وإن كانت الدنيا بنعيمها أقرب وأسرع ، إلا انّهم فضلوا الآخرة ، فقد وصفوا الجنة في أشعارهم ، مرغبين بها ، كما وصفوا النار منفرين منها ، لذلك شكل يوم الحساب هاجسا يطاردهم ، وفكرة حاضرة معهم في كل عمل من أعمالهم ، فكان شعورهم دائمًا أنّ الله رقيب عليهم ، وأنّه لهم يوم الحشر محاسب ، فوعظوا بذلك واتعظوا .

رابعًا : الاتعاظ بالقبور والأقوام السابقة :

تعد القبور من الأمور التي تثير الخوف والفزع في النفس الإنسانية ؛ باعتبارها المكان الذي يستقر فيه جسم الإنسان ، ويختفي فيها بعد ساعات قليلة من موته ، وهي التي تذكره بالموت دائمًا ، فتولد لديه رغبة في إصلاح الذات وتقويمها ؛ لذلك أثرت القبور في سلوك الفرد والمجتمع ، ليس في الإسلام فحسب ، بل فيما قبله أيضًا ، عند العرب وعند غيرهم من الأقوام الأخرى .

وهنا ، لا أود خلط الحديث عن القبور والأقوام السابقة ، بل لا بد من تفصيل القول في كل منهما على حدة . وفيما يلي بيان ما يتعلق بالقبور من مواعظ ذكّر بها شعراء الزهد في العصر الأموي .

* القبور من المحسوسات :

يشاهد الإنسان القبور بعينه ، ويرى كيف يتساوى فيها الناس جميعًا ، فلا فرق فيها بين عربي أو أعجمي ، أو غني أو فقير ، ويدرك أنّ الناس عندما يشيعون ميتًا ، فإنّ كفيه لا يحملان

---

[1] الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٦ ، ص٣٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شيئًا من أملاكه إلى قبره ، فكما جاء إلى الدنيا خالي اليدين ، يخرج منها كذلك ، ومنه هنا كان دفن الميت درسًا في الوعظ لكافة الناس .

وقف زهاد بني أمية يتدارسون الحياة الدنيا ومشوارها القصير ، فوجد الناس يتهالكون عليها ، ويبنون القصور ، ويجمعون المال الذي يحرصون عليه في خزائن متينة ، ويحرم أنفسهم منه ، عدا حرمانهم الفقراء والمساكين ، رغم أنّ لهم فيه حق معلوم .

واعتمد الزهاد والوعاظ هذه القضية الحساسة التي تثير مكامن العواطف في النفس ، فأخذوا يعظون الناس بها ، ومن يتعظ يترفع عن تهالكه على حطام الدنيا ، ويترك ما يفنى ، ويتجر بما يبقى ، ومما ذكر في هذا الموضوع ما قاله علي بن الحسين :

أمسوا رميمًا في التراب وعطلتْ ... بحالسهم منهم وأخلى مقاصرُ

وحلّوا بدارٍ لا تزاورَ بينهم ... وأنّى لسكان القبورِ التزاورُ

فما أن ترى إلا قبورًا قد ثووا بها ... مسطحةً تسفي عليها الأعاصرُ[1]

والقبر دار ضيقة ، تتحلل فيه خلايا الجسم إلى تراب ، فهي درس قاسٍ لمن يدّكر ، يعرفه العاقل ، ولا يذكره الجاهل ، وهو يعرف أنّ العمر تتقدم ، وأنّ السبيل تنحدر به إلى حفرة القبر المظلمة ، فيحذر نفسه من هذه الظلمة التي ستعيشها كل نفس ، فهذا سابق البربري يحاور نفسه ويعلمها ويحذرها من ذلك ، فكل إنسان يحمل وزره ، ويُحاسب على ما قدمت يداه ، لذلك يعظ نفسه ، ويعظ الناس ، ويذكرهم بهذا الكرب الذي لن ينجو منه أحد ، يقول :

وبعدَ دخولِ القبرِ يا نفسُ كربةٌ ... وهولٌ تشيبُ المرضعينَ زلازلُهْ

فلا يرتجي عونًا على حملِ وزرِهِ ... مسيءٌ وأولى الناسِ بالحملِ حاملُهْ[2]

ولعلّ مالك بن دينار من أكثر الشعراء ذكرًا للقبور والموت ؛ أملاً في إصلاح المجتمع ، وبعث الإيمان في القلوب من جديد ، ففي ذكرها إحياء للنفوس الميتة ، وإنعاش للإحساس المتبلد ، ومالك هذا يحاور القبور ويناديها ، فلا تجيب ، وهو يدرك أنها كذلك ، لكنه اراد أن يخلطب في الحقيقة عقول المنحرفين الفاسدين ، ويقول لهم : إلى أين تسيرون ؟! وكيف تتوهمون أنكم تفرون

---

(1) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص٩٩ .

(2) الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مصيركم وأنتم تعلمون ألا مفر ؟! اعلموا أنّ القبور هي مصيركم المحتوم ، وهي تضم العظيم والحقير ، فاتّعظوا وخذوا هذا الموقف بالحسبان ؛ لأنّ القبور واعظة لمن أراد العظة ، وفي الأقوام السابقة عبرة كافية لمن فكر وتأمل فيها ، يقول :

أتيْتُ القبورَ فناديتُها ... فأين المعظّمُ والمحتقرْ

وأين المذلُ بسلطانِهِ ... وأين المزكّي إذا ما افتخرْ

فنوديت من بينها لا أرى ... شخوصًا لهم ولا من أثرْ

تفانوا جميعًا فما مخبرٌ ... وماتوا جميعًا ومات الخبرْ

تروحُ وتغدو بناتُ الثرى ... فتمحي محاسنَ تلك الصورْ

فيا سائلي عن أناسٍ مضوا ... أما لكَ فيما ترى معتبرْ ![1]

والقبور لا تخبر عن ساكنيها شيئًا ، فلا تزاور بينهم ، يسكنها العظيم والحقير على حد سواء ، والقوي فيها كالضعيف ، يتساوى الناس عند دخولها كما يتساوون عند الخروج منها ، ويقف الجميع بعدها بين يدي الله ، وفي ذلك عظيم الموعظة للناس ، فالأحياء سيكونون يومًا سكان القبور ، وكما نحن نعيش اليوم ، فقد كان السابقون ، وكما هم الآن ، سنكون بعد حين . فهذا مالك بن دينار يصف قبرًا ، وقد وجده مكتوبًا عليه :

يا أيّها الركبُ سيروا إنّ غايتكم ... أن تصبحوا ذات يومٍ لا تسيرونا

حثّوا المطايا وأرخوا من أزمّتها ... قبلَ الممات وقضّوا ما تقضّونا

كنّا أناسًا كما كنتم فغيّرنا ... دهرٌ فسوف كما كنّا تكونونا[2]

فالشاعر هنا يجسد حوارًا بين الأحياء والأموات ، فتقول القبور لمن يمر عليها : اليوم تسيرون ، وتمشون في مناكب الأرض ، ولكن ، اعلموا أنّه سيأتيكم يوم لا تسيرون فيه ، فافعلوا ما تشاءون قبل موتكم ، فكما نحن اليوم ، ستكونون غدًا .

وقد روي عن مالك بن دينار أيضًا أنّه كان يخرج يجهز الموتى على حمار قصير لاطئ ، لجامه من ليف ، وعليه عباءة ، ثم يعظ من معه ، حتى إذا وصل القبور ، قال بصوت محزون :

---

[1] الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٠٥ ، وينظر : ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج٢ ، ص٣٠٢ .

[2] الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٢ ، ص١٣٤ ــ ١٣٥ ، وينظر : الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا حيِّ القبورَ ومن بهنّه وجوهٌ في القبورِ أحبّهنّه
فلو أنّ القبورَ سمعنَ صوتي إذن لأجبنني من وجدهنّه
ولكنّ القبورَ صمتْنَ عنّي فأُبْتُ بحسرةٍ من عندهنّه[1]

ويبدو أنّ الوعظ بالقبور ، وما يحلّ بالناس بعد الموت ، ليس مسلك الزاهدين الذين كان زهدهم مبدأ حياة فحسب ، إنّما نراه عند الكثير من الشعراء أيضًا ، فالفرزدق يعظ ويتعظ ، وهو يرى الرجال الأقوياء العظماء ، وقد صاروا جثثًا هامدة ، وأغلب الظنّ أنّ خوف الفرزدق من الموت ومن عذاب القبر ومن الحساب ، هو الذي كان يدفعه بين الحين والآخر لإعلان التوبة والرجوع إلى الله ، يقول :

قفْ بالقبورِ وقلْ على ساحاتِها من منكم المغمورُ في ظلماتِها
ومن المكرّمُ منكم في قصرِها قد ذاقَ بردَ الأمنِ من روعاتِها
أمّا السكونُ لذي العيونِ فواحدٌ لا يستبينُ الفضلُ في درجاتِها
لو جاوبوكَ لأخبروكَ بألسنٍ تصف الحقائقَ بعدُ من حالاتِها[2]

يروي إسحاق بن إبراهيم أنّ الحسين بن علي ، زار مقابر الشهداء بالبقيع ، فقال الأبيات التالية ، مذكرًا أنّ القبور مكان لا بدّ أن يسكنه المرء ، ثم يجري الحسين حوارًا مع القبور ، وتخبره القبور من خلال هذا الحوار أنّ سكانها قد أصبحوا أشلاء ممزقة ، وأنّ التراب قد غمر وجوههم ، وأنّ عظامهم سُحقت ومُزقت ، وما هذا الحوار مع القبور في حقيقته إلا حوار يدور في نفسية الشاعر ، يدل على مدى الاضطراب والقلق فيها الناتج عما سيلاقي في القبور ، وعما سيؤول إليه حاله ، وكيف سيصير جثة لا حراك بها ، يقول :

ناديْتُ سكانَ القبورِ فأسكتوا وأجابني عن صمتهم تربُ الحصا
قالت أتدري ما فعلْتُ بساكني مزقْتُ لحمهم وخرقْتُ الكسا
وحشوْتُ أعينهم ترابًا بعدما كانت تأذّى باليسيرِ من القذا

---

(1) الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٢ ، ص٣٧٣ ، وينظر : ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج٢ ، ص٣٠٤ ، والزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٠٦ .

(2) الغزالي أبو حامد : مكاشفة القلوب ، دت ، ص٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا العـــظامُ فإنّـــي مزقْتُـــها   حتى تباينـــتْ المـــفاصلُ والشوا[1]

ولعل من جميل ما قيل في القبور ، وما تسترها من جثث ، ما قاله الخليفة الزاهد عمـــر بن عبد العزيز الذي نادى بالوقوف بالقبور والتأمل بها ، والتعرف إلى ما تستر هذه الحفر ، فإنّ في ذلك موعظة وعبرة للإنسان المغرور المتكبر الذي لا يدري أين تسيرُ الحياة به ، وقد نســـي مـــن يكون ، يقول :

قفْ بالمقابرِ وانظر إن وقفْتَ بها   للهِ درُّكَ ماذا تسترُ الحفرُ

ففيهم لك يـــا مغرورُ موعـــظةٌ   وفيهم لك يا مغترّ معتبرُ[2]

*** الاتّعاظ بالأقوام السابقة :**

تعد الأقوام السابقة والأجيال التي سلفت خير ما يتعظ به الإنسان ، فيؤمن أن البقـــاء مستحيل ، وأنّ الخلود على الأرض لا يناله أحد ؛ لذلك ترضى نفسه بالموت ، وتعلم أنّه في كـــل يوم يمضي يقترب الموت منه ، فكأنه يسير في طريق مكره على السير فيها ،وهذه الطريق تؤدي إلى مسكن صغير ضيق لا يسكنه إلا الميت ، وهو القبر .

لو نظر الإنسان نظرة استرجاعية إلى الماضي ، بما تحتويه ذاكرته من أسماء قديمة سمع عنها ، من ملوك وجبابرة وقياصرة وأنبياء وفرسان وشعراء ، أو ينظر من زاوية أخرى ، فيفكر في مـــا آل إليه جده أو أبناء جيله ، ويعلم أنّ الجميع إلى نهاية واحدة محتومة ، يصيرُ الحي فيـــها ميّتـــا ، ويوارى التراب ، ولا يبين تراب جثته من التراب العادي المجاور ، فيخلص إلى أنّ الحياة رخيصـــة تافهة ، لا تستحق كل هذا الاهتمام والتشبث ، هذا ما استغلّه شعراء الزهد في العصر الأمـــوي ؛ ليكون ركيزة من ركائز دعوتهم إلى العبادة والتقوى والعمل للآخرة والتخلص مما غرهم وغمرهم من غرور الدنيا وما بهرهم من معطيات الحياة الجديدة في ذلك العصر . فقد قال سابق الـــبربري واعظًا الناس في مثل هذا الشأن :

٥٤٢٨٣٥

نلهو ونأمل أيّامًا تُعدُّ لنا   سريعةَ المرِّ ، تطوينا ونطويها

---

[1] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٨ ، ص١٨٤ .

[2] الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكلُّ نفسٍ لها زورٌ يصبّحها من المنيّةِ يومًا أو يمنّيها [1]

ويستشهد بعض الشعراء بالأقوام الغابرة ، أمثال قوم عاد وارم التي لم يعد يبقى منها إلا الذكر والقصص التي يتناقلها الناس ، ومن لم يمت لسبب من أسباب الموت السريعة ، فإن الهرم لاحقه ومميتة ، لذلك يذهب الأحوص إلى دعوة الناس إلى الاتعاظ بهذه الأمم وعدم الغرور بالدنيا وحطامها .

من يأمن الدهر ويرجو الخلودَ به بعد الذين مضوا في سابق الأممِ
ليس امرؤٌ كان عيش يسر به يوماً بأخلدَ من عادٍ ومن إرمِ
يهوى الخلود وقد خطت منيته ولا مرّد لأمر خُطّ بالقلمِ
لا بد أن المنايا سوف تتركه ومن يعمر فلن ينجو من الهرمِ [2]

ويؤمن الشاعر الزاهد بالقضاء والقدر ، وأن المنية إذا جاءت لا يستطيع الإنسان أن يؤخرها ساعة ويقدمها ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فلا خلود للقيامة ولا دافع للمنون ، وتمضي الأجيال متلاحقة ، فكما يخلق الناس أجيالاً متلاحقة ، فإنهم يغادونها كذلك أجيالاً متلاحقة .

هذا ما صوره محمد بن خالد بن الوليد عندما طرح هذه التساؤلات : هل يخلد الإنسان إلى القيامة ؟ أم هل يستطيع دفع منيته ؟ ثم يقول هيهات يكون ذلك ، ولن يكون ، فكل إنسان مفجوع بغيره ، كما سيفجع به غيره ، ويرى أن الفطرة البشرية تكره الموت ، والزمان بما نكره يستمتع ويتلذذ :

هل الخلود إلى القيامة مطمعُ أم للمنونِ عن ابنِ آدمَ مدفعُ
هيهات ما لنفس من متأخرٍ عن وقتها لو أن علماً ينفعُ
أين الملوك وعيشهم فيما مضى وزمانهم فيه وما قد جمعوا
ذهبوا أو نحن على طريقه من مضى منهم فمفجوعٌ به ومفجّعُ

---

[1] المصدر السابق ، ص ٣٥٣ .

[2] الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٦٤ ، وينظر : البحتري أبو عبد الله الوليد بن عبيد : حماسة البحتري ، ص٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عثر الزمـــانُ بنـــا فأوهى عظمنا ... إنّ الزمـــانَ بما كرهنا مولعُ[1]

ويتساءل سابق البربري وهو يعظ الناس ويذكرهم ، أين الملوك الذين غرهم الدنيا زماناً ؟ فأتاهم الموت بعد أن ظنوا أن ملكهم دائم لهم ، وهاهم أصبحوا ذكراً غابراً لا وجود له إلا مـا تحمله القصص والأحاديث التي يتذاكرها السحّار في سحرهم ، وكأنه بذلك ينبـــه القـــارئ أو السامع أن احذر ألا تقع فيما وقعوا فيه ، واحذر ألا يكون مصيرك كمصيرهم ، إذ ماتوا كفّـــاراً غير مستعدين لآخرهم ، فتنبه أنت وتزود ليوم حشرك ، يقول :

أين الملوكُ التي عن خطبِها غفلتْ ... حتى سقاها بكأسِ الموتِ ساقيها

غُرّتْ زمانًا بملـــكٍ لا دوامَ لـــه ... جهلاً كما غرّ نفسًا من يمنّيـــها

وصبّحتْ قومُ عادٍ في ديـــارهـــم ... بمقطعٍ يوم عادتـــهم عواديهـــا

وتبّعًا وثـــمودَ الحـــجرِ غادرَهـــم ... ريبُ المنونِ رميمًا في مغانيـــها

فكيف يبقى على الأحداثِ غابرُنا ... كأننا قد أظلـــتـــنا دواهيـــها[2]

ويقف مسكين الدرامي أمام نفسه يحاورها ، ويثبت لها حقيقة مفادها أنـــه ميـــت لا خلود له ولا بقاء ، ومصدر هذا إيمانه العميق وزهده في الدنيا ، وتطلعه إلى الحياة الآخرة التي هي خير وأبقى ، فهو ليس بأقدر على الاستمرار في الحياة ممن سبقه من الأجيال التي منـــها الشـــعراء والأمراء ، فيتساءل في قصيدته العديد من الشعراء والرجال الذين سبقوه : أين أصبح مثواهـــم ؟! وما هو المصير الذي آلوا إليه ؟! . ومن أبياتها :

ولستُ بأحيا من رجالٍ رأيتهم ... لكلِّ امرئٍ يومًا حمامٌ ومصرعُ

دعا ضابئًا داعي المنايـــا فجاءه ... ولما دُعوا باسمِ ابنِ دارةَ أسمعوا

وأوسُ بنُ مغراءِ القريعيِّ قد ثوى ... له فوق أبياتِ الرياحيِّ مضجعُ

ونـــابغةُ الجعـــديِّ بالرملِ بيتُهُ ... عليه صفيحٌ من رخامٍ مرصّـــعُ

ويستمر في ذكر العديد من هؤلاء الرجال إلى أن يقول :

---

[1] المرزباني : معجم الشعراء ، ص٣٤٥ ، وينظر : بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٣٢ .

[2] الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٥٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولئك قد مـــضوا لسبـــيلهم كما مات نعمانُ بنُ عامر تبعُ[1]

هذه بعض الأشعار التي استشهد بها شعراء بني أمية الزهّاد ، والتي كان هدفـــهم منـــها تذكير الناس وإيقاظهم من غفلتهم ، وهم قريبو العهد بالرسالة ، وقد غرقهـــم الدنيـــا وبهرتهـــم الحضارات والانفتاح الذي اندفع إليهم مع الفتح ، فانشغلوا بالدنيا عن الآخرة ، وقد وقف الزهاد يذكروهم بأنّ مصيرهم كمصير من سلفوا من الأمم التي بادت واندثرت .

خامسًا : الدعوة للتقوى والعبادة :

لقد سبق القرآن الكريم الزهاد والعباد في الدعوة إلى التقوى والإكثـــار مـــن عبـــادة الله بالفرائض والنوافل ، فتفاوت الناس في مراتب الجنة مردّه تفاوتهم في التقوى والعبادة ، قال تعالى : { ومن يتقِّ الله يجعلْ له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب }[2] .

والتقوى هي ما يميز الزهاد عن عامة الناس ، فإغراقهم بالعبادة والتقوى والانقطاع لهـــا والزهد بالدنيا ، هو الأمر الذي غرسه الإسلام في نفوسهم ، وظل يكبر حتى تحولـــوا إلى زهـــاد ووعاظ ونساك ، يعظون الناس وينصحونهم على المنابر وفي المساجد والمجالس والقصائد ، وفي كل محفل تتاح لهم فيه فرصة .

وأهم ما ركز عليه الشعراء الزهاد في مجال الدعوة للعبادة والتقوى ما يلي :

*** الحث على التقوى بتكرار لفظها الصريح :**

أكثر الشعراء من الدعوة إلى الإخلاص في العبادة ، والتخلص من التهالك على الدنيا و زيفها ، باعتبار أنّ التقوى أفضل العمل وخير الزاد ، لمن ينطلق من الدنيا للآخرة ، وفي هذا يدعـــو أعشى همدان صراحة إلى التقوى ، فهي عنده أفضل ما يمكن أن يفعله الإنسان على هذه الأرض ، ولا خير في الحياة إذا لم يدّخر الإنسان عملاً ينتفع به بعد موته ، يقول :

عليك بتـــقوى اللهِ في كلِّ أمرِهِ تجدْ غبّها يومَ الحسابِ المطوّلِ
ألا إنّ تقوى اللهِ خـــيرُ مغبـــّةٍ وأفضلُ زادِ الظاعنِ المتحـــمّلِ

---

[1] محمد بن حسن الزير : الحياة والموت في الشعر الأموي ، ص٣٠٢ .

[2] سورة الطلاق ، الآية٣ ، ٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا خيرَ في طولِ الحياةِ وعيشِها إذا أنت منها بالتـّقى لم ترحلِ[1]

وهذا الحطيئة الشاعر المعروف بسوء خُلُقه وخلْقه يقرر أنّ السعادة الحقيقية للإنسان في الحياة الدنيا والآخرة لا تكون بالمال والغنى ، أو بتحقيق ما تصبو إليه النفس من رغبات أو شهوات ، إنما بـالتقوى والعبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي خير ما يدخر الإنسان من دنياه لآخرته ، يقول :

لستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ولكنّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقوى اللهِ خيرُ الزادِ ذخرًا وعند اللهِ للأتقى مزيـــدُ
وما لا بدّ أنْ يأتي قريـــبٌ ولكنّ الذي يمضي بعيدُ[2]

ولعل التقوى والدعوة لها في شتى الأمور معنىً عام كثير الاستعمال على مر العصور منـــــذ الدعوة الإسلامية حتى يومنا هذا ، حيث ينطلق على لسان الخاصة والعامة بعبارات سهلة مثـــــل : (تقوى الله) و(اتّقِ الله) . ولا تكون التقوى في أداء الشعائر فحسب ، بل يندرج تحتها كل قـــول أو عمل يقوم به الإنسان في شتى مناحي الحياة ، فهذا عبد الملك بن مروان ينصح الحجاج والي العـــراق بكتاب يأمره فيه بالتوفير وعدم الإسراف في أموال المسلمين ، حيث يقول :

عليك بتقوى اللهِ في الأمرِ كلّهِ وكن يا عبيدَ اللهِ تخشى وتضرعُ
ووفّرْ خراجَ المسلمين وفيأهم وكن لهم حصنًا تـــجيرُ وتمنـــعُ[3]

لذلك ركز الزهاد على ضرورة التقوى ، واعتبارها منهجًا عامًا للحياة ، وفلسفة تـــــؤدي بالتقي إلى طريق الفلاح والفوز يوم العرض على الله ، ويجب أن تظهر التقوى في كل قول أو فعـــــل يقوم به الفرد في حياته والجماعة في حياتها ، لذلك يرى الأوزاعـــــي أنّ التقـــوى لا تكـــون إلا إذا انعكست إيجابيًا في شتى مناحي الحياة ، فيطيب طعامه وشرابه وكسبه وإنفاقه بطريق الحلال ، يقول :

ليـــس الـــتقيُّ بمتّـــقٍ لإلهِـــهِ حتى يطيبَ شرابُـــهُ وطعامُـــهُ
ويطيبُ ما يجني ويكسبُ أهلُهُ ويطيبُ من لفظِ الحديثِ كلامُهُ[4]

---

[1] البحتري : حماسة البحتري ، ص١٦ .

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج٢ ، ص١٧٥ .

[3] الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣٣ ، وينظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١١٢ .

[4] علي بن محمد الموردي : أدب الدنيا والدين ، ت مصطفى السقا ، مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ـــ مصر ، ط ٤ ، ١٩٧٣م ، ص٤٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نطقَ النبيُّ النابــهُ عن ربِّــهِ فعلى النبيِّ صلاتُــهُ وسلامــهُ[1]

والوليد بن يزيد يقف على المنبر خاطبًا في الناس ، داعيًا إياهم إلى العبادة والتقوى ، وهــو يحثهم بأسلوب تعليمي إلى العمل لما فيه صلاحهم ، ويلجأ الشاعر إلى التصوير ليعزز فكرته ، فيشــبه التقوى وعمل الخير بالزرع الذي ينضج ، فيحصده زارعه ، فلا يحصد إلا ما زرع ، وكذا التقــوى ، فما يفعل الإنسان من خير يجد ثوابه يوم القيامة عند العرض على الله ، يقول :

لا تتركن نصحي إنّــي ناصحٌ إنّ الطــريقَ فاعلمن واضحُ
من يتّــقِ اللهَ يــجد غبّ التقى يومَ الحسابِ صائرًا إلى التّقى
إنّ التقى أفضلُ شيءٍ في العملْ أرى جماعَ البرِّ فيه قد دخلْ
ما يزرعُ الزارعُ يــومًا يحصدُهُ وما يقدّمُ من صلاحٍ يحمدُهُ[1]

وتكثر أشعار الزهاد في الدعوة إلى التقوى في هذه الفترة ، ولعل تزايد هذه الدعوة انعكــاس لما عاشته الأمة في هذه الحقبة الزمنية من تناحر وتطاحن ، وما أصاب الأمة من فتن أدت إلى تمــزق الجسد الواحد ، وما زامن ذلك من فتوحات واسعة أدت إلى الكثــير مــن التغــيرات الاجتماعيــة والأخلاقية ؛ مما كان لها أثرها الواضح في الحياة الدينية عند الكثير من الناس ، فاشتد الزهاد والعبــاد والقابضون على دينهم الرافضون الخوض مع الخائضين تمسكًا واعتصاما بحبل الله ، ومن ذلك ما قالــه النابغة في الوعظ :

فاتّقِ اللهَ ما استطعتَ وأحسنْ إنّ تقوى الإلهِ خيرُ الخلالِ[2]

وقول سابق البربري ، وهو يعظ الخليفة عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد :

إنّ التقى خيرُ زادٍ وأنتَ حاملُهُ والبرُّ أفضلُ شيءٍ نالَهُ بشرُ[3]

ويصور التقى والهداية للإنسان في أهميتها لتحقيق راحته النفسية وإشفاء قلبــه ، كــالغيث الذي تنتفع منه الأشجار العطشى ، فتنضر بعد جفاف ، ويرى أنّ العالم بالتقوى والعامل بهــا ليــس

---

(1) الأصفهاني : الأغاني ، ج٧ ، ص٥٧ ــ ٥٨ .

(2) الجعدي النابغة : ديوان النابغة الجعدي ، ص٦٣ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٧٠ .

(3) الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٤٠ ، وينظر : البحتري : حماسة البحتري ، ص١٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كمن يجهلها ، ويمثل على ذلك بالأعمى والبصير ، مستخدمًا التصوير لتدعيم فكرته ، وتحقيق ما يهدف إليه :

وفي الهدى عبرةٌ تُشفى القلوبُ بها ... كالغيثِ ينضرُ عن وسميّهِ الشجرُ

وليس ذو العلمِ بالتقوى كجاهلِها ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بصرُ[1]

ويرى الفضل بن عباس أنّ الحزم هو تقوى الله سبحانه وتعالى ؛ لذلك عليك أيها المرء بتقواه ، لأنّ ذلك هو سبيل الرشد ، وهو السبيل الذي لا يناله فاجر أو كافر ، ويشهد أنّ خير ما يقوم به الإنسان هو تقوى الله ، وشر ما يقوم به الأعمال الفاسدة والآثام ، يقول :

والحزمُ تقوى اللهِ فاتّقِه ... ترشدْ وليس لفاجرٍ حزمُ

خيرُ الأمورِ مغبّةً وشهادةً ... تقوى الإلهِ وشرّهُا الإثمُ[2]

* **الصلاة وقراءة القرآن والتوبة إلى الله :**

أُدرجت الصلاة وقراءة القرآن والدعوة إلى التوبة على ألسنة الشعراء ، فهم يدعون الناس وأنفسهم إلى الإكثار من هذه العبادات ؛ لتمحو ما وقعوا فيه من الإثم ، وأملاً في المغفرة من الله تعالى ، فيتوب عن ذنبه إلى الله ويستغفره ، ويعد نفسه بالالتزام بما شرعه الله ، متجنبًا ما يغضبه ، أو ما يعرض نفسه من خلاله للعقاب ، فهذا سفيان الثوري يخاطب نفسه معلنًا توبته ، محاولاً إقناعها بأنّ الوقت قد حان للتوجه إلى الله والعودة إليه ؛ ذلك أنّها لا طاقة لها على النار ، وفي ذلك يقول :

يا نفسُ ما لكِ من صبرٍ على النارِ ... قد حانَ أن تقبلي من بعدِ إدبارِ[3]

ولا يقف الأمر بالنسبة للزاهد على إعلان التوبة وطلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى ، بل يتعدى ذلك إلى ما هو أبعد وأعمق ، فيشغل نفسه بالرياضات والمجاهدات ، ويرهقها بالعبادة ، ومن ذلك أن يكثر من الصلاة ، أو أن يحرمها من الطعام ، أو يحجّ ماشيًا ، وما هذا إلا إمعانٌ في التوبة ، وزيادة في التوسل لله تعالى في طلب المغفرة ، فهو يكلف نفسه ما قد يعرضها للهلاك في طاعة الله أملاً في تحقيق ما يرضيه ، فهذا سعيد بن وهب الذي حجّ ماشيًا ، فبلغ منه التعب مبلغًا ، وأجهد نفسه أيما إجهاد ، حتى

---

(1) الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٤٠ ، وينظر : البحتري : حماسة البحتري ، ص١٦١ .

(2) الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣٨ ، وينظر : البحتري : حماسة البحتري ، ص١٦١ .

(3) الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج٦ ، ص٣٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اعتورت قدماه من الرمل ، ويعتبر هذا عقابًا لنفسه ، أو ندًا لما فعله من ذنوب ، آملاً أن تكون هذه بتلـــك ، فيقول في آخر أبياته أنّه يمشي معذّبًا نفسه ؛ لأنّه مذنب ، ولعل الله يغفر له ، يقول :

قدميّ اعتورا رمل الكثيبِ　　　وأطرقا الآجــنَ من ماءِ القليــبِ
ربّ يومٍ رحما فيه عــليّ　　　زهــرة الدنــيا وفي وادٍ خصيبِ
وسماعُ حسنٍ من حــسنٍ　　　صخبُ المزهرِ كما لظبيِ الربيبِ
فاحسب ذاك بهذا واصبرا　　　وخــذا من كــلّ فنٍ بنصــيبِ
إنّما أمشي لأنّي مذنــبٌ　　　فلعلّ اللهَ يعــفو عـــن ذنــوبي[1]

وتدل الأبيات السابقة على أنّ الزاهد إذا ما وقع في خطيئة أو ذنب استغفر واعترف بذنبه ، وسارع إلى القيام بالرياضات والمجاهدات وإرهاق النفس والجسد بالعبادة ؛ تعبيرًا عن الرغبة الحقيقية في التوبة ، ويبدو أنّ الزاهد لا يكتفي بالدعاء والاستغفار ، بل يستشعر غضب الله عليه ، فيدّعم دعواه بهذه الأعمال المرهقة كـالحج مشيًا على الأقدام . يقول أعشى همدان في الاستغفار والتوبة لله :

استغفرُ اللهَ أعمالي التي سلفتْ　　　من عثرةٍ إن يعاقبني بها أُبقِ[2]

يقول قيس بن ربيع :

أتوبُ إليك يــا ربّاهُ عــمّا　　　جنيْتُ فقد تكاثرت الذنوبُ[3]

ولعلّ كثيرًا من الزهاد يتوبون إلى ربهم بعد الوقوع في الذنوب ، أو بعد قضاء فترة طويلـــة مـــن عمرهم في الجهل والفسق والانحراف ، فيسارع الزاهد إلى الاعتراف بذنوبه وآثامه ، ويعلن عن نيته الإسراع في العمل الإيماني الذي يرضي الله تعالى كما سارع في العمل الفاسد الذي أغضبه ، وهذا ما عبر عنه أبـــو جلـــدة اليشكري* بقوله :

سأركضُ في التقوى وفي العلمِ بعدما　　　ركضْتُ إلى أمرِ الغويّ المشهرِ[4]

ويقول الوليد بن يزيد في الاستغفار والتوبة :

---

[1] ابن الجوزي جمال الدين بن الفرج : صفوة الصفوة ، ت محمد فاخوري ومحمد رواس ، قلعة جي ، دار المعرفة ـــ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

[2] الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٨٥ .

[3] روحي البعلبكي : معجم روائع الحكمة والأقوال الخالدة ، دار العلم للملايين ـــ بيروت ، ١٩٩٨م ، ص٣٦ .

* شاعر أموي ، سكن الكوفة ، قتله الحجاج لأنه خرج مع ابن الأشعث .

[4] الأصفهاني : الأغاني ، ج١١ ، ص٣٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاستغفروا ربّكم وتوبوا ... فالموتُ منكم فاعلموا قريبُ[1]

وأمّا الصلاة فهي عمود الدين ، وهي من أهم الرياضات والعبادات ، فقد دعا الزهاد إلى الإكثار من النوافل فيها ، ويعتبرها وضاح اليمن* نقطة التحول من الطيش والفساد والفسق إلى العبادة والتقوى ، وبراها عمود الدين ، ومن أقامها فقد أقام الدين ، ومن أنكرها أنكر الدين كله ، إذ تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر وتنجي الإنسان من العثار يوم القيامة ، يقول داعيًا نفسه إليها :

مالكَ وضّاحُ دائمَ الغزلِ ... ألستَ تخافُ تقاربَ الأجلِ

صلِّ لذي العرشِ واتّخذ قدمًا ... تنجيكَ يومَ العثارِ والزللِ[2]

ولعلّ التهجد بالقرآن الكريم ليلاً من الأمور التي كان لها أثر كبير في نفوس الزهاد والناسكين ؛ لذلك يدعو مالك بن دينار إلى قراءة القرآن الكريم والتهجد بها ، لأنّه أفضل من النوم ، يقول :

تنبّهْ من منامِكَ إنّ خيرًا ... من النومِ التهجّدُ بالقرآنِ[3]

ولا تقف التقوى عند القيام بالفرائض ، بل تتعدى ذلك — وهذا أمر طبيعي — إلى الابتعاد عما نهى عنه الله سبحانه وتعالى ، فالأمر بالمعروف مرتبط بالنهي عن المنكر ، لذلك دعا الزهاد إلى البعد عما يغضب الله ولعلّ شرب الخمر من أبرز المعاصي التي نهوا عنها في أشعارهم ، فهي أمّ الخبائث ، ولها اثر كبير على شاربها ، إذ تدفعه إلى اللهو والعربدة والاستهتار والمجون ، لذلك ذمها الشعراء ، وذموا شاربيها ، يقول خيار بن أوفى النهدي** :

أحمدُ بنَ زيدٍ ليس في الخمرِ رفعةٌ ... فلا تقربوها إنّني غيرُ فاعلِ

فإنّي وجدْتُ الخمرَ شيئًا و لم يزلْ ... أخو الخمرِ حلاّلاً شرارَ المنازلِ

فكم قد رأينا من فتًى ذي جهالةٍ ... صحا بعدَ أزمانٍ وطولِ تجاهلِ

ومن سيّدٍ قد منّعته خزايةٌ ... فعادَ ذليلاً ضحكةً في المنازلِ

فللهِ أقوامٌ تمادوا بشربِها ... فأضحوا وهم أحدوثةٌ في القوافلِ[4]

---

[1] المصدر السابق ، ج٧ ، ص٥٨ .

* هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن كلال ، لقّب بوضّاح اليمن لأنه من أجمل العرب

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج٦ ، ص٢٢٩ .

[3] الغزالي : إحياء علوم الدين ، ص٣٦٣ .

** شاعر مجيد في العصر الأموي ، أنشد هذه الأبيات في حضور معاوية بن أبي سفيان .

[4] أبو القاسم علي بن الحسين بن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، دار المسيرة ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ج٥ ، ص١٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالأبيات توضح مدى ما توقعه الخمرة في عقل شاربها من النقص والذل أمام الناس ، فـــأبو [illegible]لدة اليشكري كان يرتادها ، وتاب عنها بعد فسق وطيش وعربدة ، وقد قال أبياتًا يذمها فيها ، ويتوب [illegible]ها ، ويصف ما تفعله بالناس بعد شربها ، إذ تتركهم صرعى لا حراك لهم ولا عقل ولا حلم ، فيتـوب [illegible]ها بعد أن أبصر طريق الحق والهداية ، يقول :

فنيتُ بها أشقى سلافَ مدامـةٍ ... كريم المحيّا من عرانـين يشكرِ
نبادرُ شربَ الرّاحِ حتّى نمرّهـا ... وتتركنا مثل الصريـع المعفّـرِ
فراجعني حلمي وأصبحت منهج ... السبيلِ وقد ما كنـت كالمتحيّرِ
وكلّ أوان الحقِّ أبصرْتُ قصدَهُ ... فلستُ وإن نُبهتُ عنه بمقصـرِ
وباللهِ حولي واحتيالي وقوتـي ... ومن عنده عرفي الكثير ومنكري[1]

فالتقوى إذن والدعوة لها قضية شغلت بال الشعراء الزهاد في العصر الأموي ، فلـم يكتـفِ [illegible]اهد بعبادته وانقطاعه لها فحسب ، بل دعا الناس إلى ذلك ، وأمعن في إثارة مخاوفـهم مـن الآخـرة [illegible]حسابها ، لذلك نرى أنّ العصر الأموي زخر بالكثير من الأشعار الزاهدة التي تدعو إلى خير العمل والقيام [illegible]كامل الواجب الديني ، ورفض الدنيا والتهوين من أمرها والإكثار من العبادة والأعمال الصالحة ؛ أملاً في [illegible]ل رضا الله تعالى .

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج١١ ، ص٣٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشهر شعراء الزهد في العصر الأموي

سابق البربري :

ليس ثمة شيء وافٍ تحتفظ به المصادر عن حياته ، ويُقال : إنّه أبـــو المـــهاجر الرّقـــي المعروف بالبربري[1] الذي كان يقطن الرقّة ، أو الرقّي ، وجاء في خزانة الأدب أنّه من مـــوالي بني أمية ، سكن الرقّة ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وله معه حكايات لطيفة ، وله أشعار في الزهد ، وجاء أيضًا أنّ البربري نسبة إلى البربر في المغرب[2] .

وهناك خبر يقول : إنّ سابقًا من أهل خراسان ، سكن الرّقة[3] ، وينسب إليها ، فيُقـــال : الرقّي ، مما يدلّ على أنّه أطال الإقامة فيها ، وليس من الضروري أن يكون من أهلها ، وقـــد كان إمام مسجدها ، وقاضي أهلها ، ولعلّ ذلك كان في عهد عمر بن عبد العزيز ؛ لأنّه كان كثير الوفود عليه ، كما ذكر ذلك البغدادي[4] .

وكما اختلفوا في اسمه وكنيته ، اختلفوا أيضًا في أصله ، فمنهم من عدّه مـــن الـــبربر المغاربة[5] ، ومنهم من جعل (البربريّ) لقبًا فحسب ، وأنّ أصله مشرقي[6] ، ويميل حســـني ناعة إلى الرأي الأول ، حيث يقول : " وليس بعيدًا أن يكون حُملَ في أثناء المدّ الإســـلامي في المغرب إلى الوليد ، فألحقه بمواليه ، إذ كان قويّ الإحساس ، حادّ التأثّر ، فتدفق على لســـانه شعر الزهد والرقائق والمواعظ والأمثال ، حتى إذا استخلف عمر بن عبد العزيز ، اســـتقدمه ، واستمع إلى قريضه ، وارتاح له ، وأكرم مثواه "[7] .

---

(1) ابن عساكر : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، ج٦ ، ص٤٠ .

(2) البغدادي : خزانة الأدب ، ج٤ ، ص١٦٤ .

(3) ابن عساكر : التهذيب ، ج٦ ، ص٤٠ .

(4) البغدادي : خزانة الأدب ، ج٤ ، ص١٦٤ ، وينظر : ابن عساكر : التهذيب ، ج٦ ، ص٤٠ .

(5) البغدادي : خزانة الأدب : ج٤ ، ص١٦٤ .

(6) الأندلسي : العقد الفريد ، ج١ ، ص٢٥٠ .

(7) حسني ناعة : شعر الفقهاء ـــ نشأته وتطوره حتى نهاية العصر العباسي الأول ، ط١ ، ١٩٧٩م ، ص٢٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الخلط الذي أصاب سابق البربري ما رواه البغدادي في الخزانة من أن سابقاً " روى عنه مكحول وموسى بن أعين والمعافى بن عمران وغيرهم "[1] ، وما جاء في التهذيب من أنه " روى عن مكحول وشعبة وجماعة ، وروى عنه الأوزاعي وغيره "[2] .

وقد يكون الرأي الثاني أقرب إلى الصواب ، وأن ما جاء في الخزانة ما هو إلاّ تصحيف أو خلط ، مما يؤكد ذلك أنه روى عن مكحول ما جاء في التهذيب : أن سابق البربري قال :" كتب مكحول إلى الحسن ونحن برابق ، يسأله عن الطالب والمطلوب ، فجاءه الكتاب ، إذا كنت طالباً فصلّ في الأرض ، وإذا كنت مطلوباً فصلّ على الأرض "[3] .

ولم تشر المصادر إلى سنة وفاته ، إلاّ أن في ولائه للوليد بن عبد الملك ومجالسته لعمر بن عبد العزيز ما يشير إلى أن وفاته كانت في نهاية العصر الأموي تقريباً .

نهجه في الزهد :

حملت أشعار سابق البربري صورة واضحة عن أخلاقه وعلمه وصلاحه ، ومثلت فلسفته في الحياة قولاً وعملاً ؛ إذ كانت صورة واضحة للزهد والرياضة النفسية التي أخذ بها المسلمون أنفسهم مستجيبين لدعوة القرآن والسنّة إلى نزع أغلال الدنيا الزائلة من أعناقهم ، لذلك وقف الرواة على شعره وتدارسوه باهتمام وجعلوه مع آثار محمود الورّاق وصالح بن عبد القدّوس ، قال ابن المعتز : " وشعر محمود كثير ، وأكثره أمثال وحكم ومواعظ وأدب ، وليس يقصّر بهذا الفن عن صالح بن عبد القدّوس وسابق البربري "[4] .

وإذا تصفحنا شعر الزهد عند سابق البربري نجده يدور حول التنفير من الدنيا ، وذم الإقبال عليها ؛ لأنها خدّاعة تغرُّ الإنسان بزخرفها وزينتها ومتاعها الزائل ، ويصور علاقة الإنسان بالدنيا وارتباطه بها وما له من مصير محتوم ، وهو الموت والزوال عن هذه الدنيا ، ثم

---

(1) البغدادي : خزانة الأدب ، ج٤ ، ص١٦٤ .

(2) ابن عساكر : التهذيب ، ج٦ ، ص٤٠ .

(3) المصدر السابق ، ج٦ ، ص٤٠ .

(4) ابن المعتز عبد الله : طبقات الشعراء ، ت عبد الستار أحمد فراج ، ط٤ ، دار المعارف ـ مصر ، دت ، ص٣٦٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحساب على ما قدّمت يداه ، إذ لا يصحبه إلاّ عمله ، ولا يغني عنه ماله ، وكم جمع في الدنيا"[1]

وأشعار سابق في الزهد لا تختلف في موضوعاتها عن أشعار غيره في نفس الموضوع في هذا العصر ، إلاّ أن الصبغة العامة لأشعاره هي الزهد والنسك والعبادة ، وهي سمة غالبة على معظم اشعاره بالإضافة إلى الحكم والأمثال .

" لا شك أن منابع شعر سابق إسلامية محضة أردّها أولاً إلى تأثير القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، ثم أقوال الزهّاد والعبّاد الذين عاصرهم ، ولا شك أن القرآن الكريم هو المنبع الأول الذي يتأثر به الزاهد في زهده وشعره ، وفي شعر سابق البربري تضمين آيات من القرآن تكاد تكون بنصها "[2] ، لذلك جاءت فلسفته في الزهد تنسجم مع فلسفة القرآن الكريم والسنّة النبوية من تحقير للدنيا وتقليل من شأنها ، بالإضافة إلى التوكل والإيمان بالقضاء والقدر ، والإكثار من العبادة والتقوى .

ولعلنا نلحظ مثل هذا التضمين القرآني في الأبيات التي حقّر الدنيا من خلالها ؛ لأن الظاعن عنها كالمقيم فيها ، وجامع المال تاركه :

يا أيها الظاعن في حظه ... إنما الظاعن مثل المقيم
كم من لبيب عاقل قُلّب ... مصحّح الجسم مقلّ عديم
ومن جهول مكثر ماله ... ذلك تقدير العزيز العليم
حظك يأتيك وإن لم ترم ... ما ضرّ من يرزق ألاّ يريم[3]

والتضمين القرآني واضح في البيت الثالث في قوله تعالى : { ذلك تقدير العزيز العليم }[4] ، ويتساءل الشاعر ، فحتى متى تلهو أيها الإنسان بهذه الدنيا ؟ وهل تعتقد أنك دائم فيها وخالد ؟ وحتى متى تجمع المال ولا تنفقه ؟ ألا ترى أنك لغيرك تجمع وتخزن ؟؟ ، ولعل في ذلك تعبير واضح وصريح عن مدى تحقيره للدنيا واستخفافه بها ، فقد نعتها بأنها

---

(1) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص٤٨ . (2) السابق ، ص ٤٩

(3) المصدر السابق ، ص١٢٠ .

(4) سورة الأنعام ، ص٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منـــزل باطل ، والباطل نقيض الحق ، وما دامت الدنيا باطلاً ، فإنّ الآخرة هي الحق ، ولذلك دعا إليها ، ودعا إلى التقشف في الدنيا ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنـــزلِ باطلٍ ... كأنّك فيه ثابتُ الأصلِ قاطنُ

وتجمعُ ما لا تأكلُ الدهرَ دائبًا ... كأنّك في الدنيا لغيرك خازنُ[1]

ولا يخلو شعر سابق البربري من الحوار الداخلي مع النفس التي ترغـــب في الدنيـــا ، وتتردد في التقشف فيها ، أو تبدي تشبثًا بها ، وتخاف من الموت ، فيعلمها الشاعر أنّ الموت لا مفر منه ، وأنّ الدنيا لا تدوم ، فكل حي إلى زوال ، وما الحياة الدنيا إلا كالمعير الذي لا بـــد أن يسترد ما أعار ، لذلك عليك أيتها النفس بالبر والتقوى وعمل الخير ، فلا ينجو الإنســـان ولو تحصن في قصر مشيد ، هذا ما عبّر عنه الشاعر في أرجوزته التالية الـــتي تحتويـــها روح التسليم لله تعالى في كل بيت من أبياتها ، كما يظهر فيها الإيمان العميق والتقشف الواضـــح في الدنيا وما فيها ، يقول :

يا نفسُ كـــلُّ قابـــرٍ مقبـــورُ

ويهلـــك الزائـــرُ والمـــزورُ

ويقبـــض العـــاريةَ المصيـــرُ

ليس على صرف التّوى عمورُ

كم من عنـــيٍّ مكثـــرٍ فقيـــرُ

والصـــدقُ بـــرٌّ والتّقى نظيرُ

والبـــرُّ معـــروفٌ به المبرورُ

وذو الهـــوى يسوقه المقدورُ[2]

ومن القضايا الأخرى التي تبرز في شعر سابق غير تحقير الدنيا ، قضية الموت التي شغلت باله ، وأخذت حيزًا لا يُستهان به في أشعاره ، فقد وعظ بها واتّعظ ، مستندًا بذلك على مـــا ورد في القرآن الكريم من آيات تصور الموت والحساب ، فقد خاطب نفسه ، مصورًا لها القـبر

---

[1] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٢٥ .

[2] المصدر السابق ، ص١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

، وما يتبع دخوله ، بعبارات وصور بسيطة سهلة ، ولعلّ هذه البساطة تنسجم مع لغة الزهد ، فلا تحتاج إلى تعمق فكري لفهمها وتحليل صورها ؛ لأنّ شعر الزهد لا يحتاج إلى مثل هذا التعمق في استخراج الصورة وفهمها ، فالشاعر الزاهد لا يهدف إلا أن تلامس مواعظه نفوس الناس وقلوبهم ، فيتعظون بها ، وهذا لا يصلح معه التعقيد ؛ لذلك عبر عن الموت وصوره بلغة سهلة بسيطة ، حتى لا يجد القارئ صعوبة في فهمها ، أو اكتشاف مدى تأثرها بألفاظ القرآن الكريم ، يقول :

وبعد دخولِ القبرِ يا نفسُ كربةٌ ... وهولٌ تشيبُ المرضعين زلازلُهْ
إذا الأرضُ خفّتْ بعد ثقلِ جبالها ... وخلى سبيلَ البحرِ يا نفسُ ساحلُهْ
فلا يرتجى عوناً على حملِ وزره ... مسيءٌ أولى الناسِ بالوزرِ حاملُهْ
إذا الجسدُ المعمورُ زايلُ روحِهِ ... خوى وجمالُ البيتِ يا نفسُ آهلُهْ
يرايلني مالي إذا النفسُ حشجرتْ ... وأهلي وكدحي لازمي لا أزايلُهْ
إذا كلّ عند الجهد يا نفسُ منطقي ... وعانيتُ عند الموت ما لا أحاولُهْ[1]

يقول تعالى: { وَيَومَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وَتَرَى الأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنهُم أَحَداً * وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَل زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً }[2] وقال تعالى : { لِيَحمِلُوا أَوزارَهُمْ كامِلَةً يَومَ القِيامَةِ }[3] ، هذه الآيات التي انطلق منها الشاعر في أبياته السابقة ، فقد صور تنقل الجبال بإذن الله ،ويجمد البحر ولا يحمل الوزر يومئذ إلا صاحبه ، فجمال الجسم لا يكون إلا بوجود الروح فيه ، وكل مستلهماً من آياته سبحانه وتعالى .

ولعل نغمة الشاعر في الزهد تتفاوت بين الشدة واللين ، فهو في الأبيات التالية يخاطب الناس بنغمة عنيفة ، فيرى أن البهائم تزجر براعيها ، ولا ينزجر الإنسان ، ثم يعود بعد

---

[1] المصدر السابق ، ص١١٧ .
[2] سورة الكهف ، آية ٤٧ ، ٤٨ .
[3] سورة النحل ، الآية ٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك في الأبيات نفسها إلى الرقة واللين فينهى عن البطر ، فإن في البطر كفر ، فيدعو بهدوء إلى الاقتداء بالأوائل ؛ لأنهم لنا غررٌ نستضيء بهم ، لأنه لا بقاء لنا بعد آدم ، فإذا زال الأصل ، فكيف يبقى الفرع ، يقول :

ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غرراً ... وليس من أمةٍ إلا لها غررُ

حتى تكونوا على منهاجِ أوّلِكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا[1]

وللتقوى حضور متميز في شعر الزهد عند الشاعر ، فنظر للإنسان على أنه علبث ، لا يدرك ما يصنع ، يتهالك على الدنيا كأنه لا يموت فعمل على وعظ الناس وزجرهم عنها من خلال مقاييس مادية محدودة سريعة التقلب والتغير ،واعتمد على ذلك في تحقيق ما يرغب ،من ملامسة قلوب الناس والتأثر في نفوسهم ، فجعل صور الدنيا والعيش فيها في ميزان الربح والخسارة ، فمن حمل زاداً كثيراً من الخير وعمل الصالح ، فقد ربحت تجارته ، ومن عاد إلى ربه لا يدخر شيئاً فقد خاب وضل السبيل ، ويخاطب العقل البشري والنفس البشرية بأسلوب الحوار المقنع والمؤثر في نفس الوقت ، مستلهماً من قوله تعالى : { وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب }[2] ، يقول :

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التّقى ... ووافيتَ بعد الموتِ من قد تزودّا

ندمْتَ على ألا تكونَ شركته ... وأرصدْتَ قبل الموتِ ما كان أُرصدا[3]

ومن جميل قوله في الدعوة إلى التقوى من خلال شعره التعليمي ، ما قاله مبديًا استغرابه واستهجانه من الناس الذين يرون الدنيا مولية ، وليس لهم عليها خلود ، وكل حبائلها سوف تقطع وتتمزق ، ولا يشعرون بتقصيرهم في أمور دينهم ، أمّا إذا حدث أقل نقص في أمور حياتهم ودنياهم شعروا بذلك وتأثروا ، لذلك ينعتهم بالجهل والتقصير في قوله :

---

[1] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٠١ .

[2] سورة البقرة ، الآية ١٩٧ .

[3] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مالي أرى الناسَ والدنيا مولّيــةٌ وكلُّ حبــلٍ عليها سوف ينبترُ

لا يشعرون بما في دينهم نقصوا جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا[1]

ولا نعدم الأقوام السابقة والاستشهاد بها في أشعار سابق ، وهي صور كثر استخدامها عند الشعراء النساك منذ العصر الجاهلي ، حيث أثاروا قضية الاتعــاظ بــالأقوام الســابقة ، والأخذ بتجاربهم مع مرور الزمن ، بشكل سطحي لا يحتاج إلى التعمــق ، فخاصــة النــاس وعامتهم يدركون أنّ الناس يتتابعون في توارث الحياة الدنيا وتوريثها ، وأنّ الأمة مهما بلغــت من القوة والجبروت فإنّ مصيرها الاندثار ، وشعراء الزهد استغلوا الموت والفناء ؛ لما له من أثر في نفوس الناس ، وجعلوه موعظة يعظون الناس بها ، ويذكروهم من خلالها بمصيرهم المحتــوم ، يقول سابق :

وكيف يأمنُ ريبَ الدهــرِ مرتهنٌ بعدوةِ الدهرِ إنّ الدهرَ عدّاءُ

ألقى على الجيلِ من عادٍ كلاكلَهُ وقومَ هودٍ فهم هامٌ وأصداءُ[2]

فالشاعر يتساءل عمّن يأمن الدهر ، وهو يعلم غدره ، ويعيد الشاعر إلى أذهاننا صياغــة الصورة الجاهلية ، فجعل للدهر كلاكل الجمل ، وقد جثم بصدره على البشر ، فلم يبق مــن الأقوام السابقة كقوم عاد وقوم هود إلا الأصداء .

وللتوكّل حضور بارز أيضًا في شعره الزهدي ، ولعل أكثر ما يمثل ذلك المقطوعة التالية التي يتحدث فيها الشاعر بلسان خطابي تعليمي ، فيقرر بعض الحقائق التي يجب أن يقتنع بهــا المؤمن ، ويعيش في الدنيا مسلمًا بها ، فالنفس تجهد في الكدّ والسعي في الدنيا ، وهي تعلــم أن تركها هو السلامة الحقيقية لها ، وتجمع الأموال ، لكنّها لذي الميراث تتركها ، وتبني البيوت ، لكنها تسعى إلى خراب الدهر ، يقول :

واللهِ ما قنعتْ نفسي بما رُزقتْ من المعيشةِ إلاّ سوف يكفيها

أموالنا لذوي الميراثِ نجمعُهــا ودورنا لخــراب الدهر نبنيها

[1] المصدر السابق ، ص١٠١ .

[2] المصدر السابق ، ص٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قس بالتجارب أحداثَ الزمانِ كما تقيسُ نعلاً بنعلٍ حين تحذيها
واللهِ ما غيّرتْ في الأرضِ ناظرةٌ إلاّ ومرُّ الليالي سوف يفنيها[1]

فالتوكل على الله يبدو واضحًا في البيت الثاني الذي يقسم فيه بأنّ نفسه إذا قنعت بما رُزقت سوف يكفيها هذا الرزق ، ويكرر القسم في البيت الأخير بأن كلّ شيء سوف يفنى ، ومن أراد التحقق من ذلك ، فليقس أحداث الزمان وتقلبات الدهر ، وينقّب فيها ، ولسوف يجدها ماثلة أمامه ، كما يقيس نعلاً بنعل ، وليتعلم منها بعد ذلك الدروس والعبر .

أبو الأسود الدؤلي :

اسمه ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل[2] ، ولد في الجاهلية قبل البعثة بثلاث سنوات[3] على الأغلب ، وأدرك حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وروى أبو عبيدة أنه شهد غزوة بدر مع المسلمين[4] .

هاجر أبو الأسود إلى البصرة وسكن فيها ، وله مسجد خاص فيها[5] ، وكان من أشياع الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد صحبه وأحب أبناءه ، وشهد معه وقعتي الجمل وصفّين وغيرها من المعارك[6] ، وقد أوفد أبو الأسود ليفاوض عائشة رضي الله عنها أيام الجمل[7] ، وروي أنّه ولي القضاء في البصرة[8] .

---

(1) المصدر السابق ، ص١٣٢ .

(2) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٢٩٧ .

(3) العسقلاني ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ت علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر — القاهرة ، دت ، ج٢ ، ص٣٣ .

(4) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٢٩٧ ، وينظر : العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، ج٢ ، ٢٣٣ .

(5) العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، ج٢ ، ٢٣٣ .

(6) ابن خلكان أبو العباس شمس الدين : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة العربية — القاهرة ، ١٩٤٩م ، ج٢ ، ص٢١٦ .

(7) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج٤ ، ص٤٦١ — ٤٦٢ ، ج٥ ، ص٧٦ .

(8) المصدر السابق ، ج٥ ، ص٢٩٣ ، وينظر : الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا وفاته فكانت سنة (٦٩هـ / ٦٨٨م) بالبصرة بمرض الطاعون وهو ابن خمس وثمانين سنة[١] .

كان أبو الأسود يتمتع بمكانة عالية في نظر الأدباء والمؤرخين ، فقد وصفوه في كتبهم بالكثير من صفات الإجلال والإكبار والاحترام ، قال الجاحظ فيه : " كان حكيمًا أديبًا وداهيًا أريبا "[٢] وأنّه " معدود في طبقات من الناس ، وهو في كلها مقدم ، ماثور عنه الفضل في جميعها ، كان معدودًا في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويّين والحاضري الجواب والشيعة والبخلاء والصلّع الأشراف والبخر (الأشراف) " [٣].

ولعلّ أشهر ما عُرف عن أبي الأسود أنّه أول من نقط المصاحف ، وأول من عمل في النحو كتابًا[٤] ، وفضله في ذلك معروف .

" أمّا شاعرية أبي الأسود فلا خلاف فيها لدى دارسي الأدب ونقّاده ، وقد ترجمت له سائر الكتب المعنية بتراجم الشعراء وتواريخهم وسيرهم ، وكانت لشعره مكانة حسنة عند جميع الشعر في العصور الإسلامية الأولى "[٥] ، وله ديوان شعر مطبوع .

منهجه في الزهد :

كان أبو الأسود أحد وجوه التابعين وفقهائهم ومحدثيهم ، وكان زاهدًا من زهّادهم ، وشاعرًا من شعرائهم ، ملتزمًا بالعبادة والزهد في شعره ، يدلّ على ذلك ما ورد في شعره من أبيات تنبئ عن مدى عمق إيمانه ، وتأصل حياته الروحية التي ألزم نفسه بها .

---

(١) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٣٣٤ ، وينظر : العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة ، ج٢ ، ص٢٣٣ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢١٨ .

(٢) الجاحظ : البخلاء ، ت طه الحاجري ، دار المعارف ـــ مصر ، ١٩٥٨م ، ص١٦ .

(٣) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٢٩٩ ـــ ٣٠٠ ، وينظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٤ ، ص٢٥٨ .

(٤) الأندلسي أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـــ مصر ، دت ، ج٢ ، ص١٣ .

(٥) أبو الأسود الدؤلي : ديوان أبي الأسود الدؤلي ، ص١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ من أشهر المعاني التي تناولها أبو الأسود في شعره قضية التوكّل على الله والإيمان بقضائه وقدره ، وهو بهذا لا يخرج عن نهج أقرانه من الشعراء الزهّاد الذين أولوا في معانيهم التوكل على الله وزوال الدنيا ووصف الآخرة والدعوة إلى التقوى عناية كبيرة في أشعارهم ، إلاّ أنّ أبا الأسود ارتبط في بعض أشعاره بمواقف معينة أو مناسبة خاصة تعرّض لها بالشعر ، وكان ذلك انعكاسًا لحياته وأسلوب عيشه ، فلم يكن شعره تنظيرًا ، بل واقعًا يعكس نمط حياته اليومي ، فقد رُوي أنّه عزم على سفر إلى فارس في مطلع الشتاء ، وكان ذلك مع خروج ابن الزبير ، فقال بعض إخوانه له : أقم حتى ينقضي الشتاء ، وتنظر كيف تسير الأمور ، فكان ردّه على ذلك بأنّه يتوكل على الله تعالى ، ويؤمن بقضائه وقدره ؛ لأنّه ما من شيء يراد للإنسان إلاّ سيناله ، ولم يكن المقام يبعد الردى ، ولا السفر يقربه ، لذلك ليس هناك بدّ من ملاقاة ما كتب الله علينا ، ولا نتخفى منه أو نتردد عنه ، لأنّه من الممكن أن يموت لإنسان ويهلك ، وهو في أهله وعشيرته ، يقول :

إذا كنْتَ معنيًّا بأمرٍ تريدُهُ ... فما للقضاءِ والتوكّلِ من مثلِ
توكّل وحمّلْ أمرَك الله إنّ ما ... يراد لك آتيك أنت له محلِ
فلا تحسبنَّ السيرَ أقربَ للردى ... من الخفضِ في دارِ المقامة والثملِ
ولا تحبسنّي عن طريقٍ أريده ... بظنّك أنّ الظنّ يكذبُ ذا العقلِ
فإنّي ملاقٍ ما قضى الله أنّني ... ملاقٍ فلا تجعل لك العلمَ كالجهلِ
فإنّك لا تدري وإن كنتَ مشفقًا ... عليّ أبعدي ما تحاذرُ أم قبلي
وكائن ترى من حاذرٍ متحفظٍ ... أُصيبَ وألفتْهُ المنيةُ في الأهلِ[1]

ويعجب أبو الأسود من هذه الدنيا وأهلها ، وهم يتصارعون على الرزق ويتنافسون فيه ، وقد علموا أنّ زوالهم عنها لا شكّ فيه ، وأنّ رزقهم مقسوم بينهم ، مكتوب عليهم ، مقدّر من لدن عزيز حكيم ، ومما أثار عجب الشاعر أيضًا أنّ الأحمق قد يُرزق رزقًا وفيرًا ، ويحرم من ذلك العاقل القوي السليم ، ثم يستدرك الشاعر ذلك ليقول : لقد زال عجبي بعد أن

(١) المصدر السابق ، ص٣٥ ــ ٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدركت أن الرزق مقسوم ، ولكل شيء أجل ، ومن كتب له رزق سيناله ، ولو قعد عنه ، والشاعر في هذا يتناول الموضوع بطريقة تعليمية ، يتدرج فيها مع العقل ، في أنّ من أعطى الجاهل الأحمق وفرة الرزق ، وحرم منها العاقل السليم هو الله سبحانه وتعالى ، مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، والأبيات التالية صورة صادقة لذلك ، يقول :

عجبْتُ للدنيا ورغبةِ أهلِها ... والرزقُ فيما بينهم مقسومُ
والأحمقُ المرزوقُ أعجبُ من أرى ... من أهلِها والعاقلُ المحرومُ
ثمّ انقضى عجبي لعلمي أنّه ... رزقٌ مواف وقتُهُ معلومُ[1]

وفي حين دعا بعض شعراء الزهد إلى القعود عن السعي ؛ لأنّ ما كُتب للإنسان سيناله ، ولو بعد حين ، ويجب على النفوس أن تسلم رزقها لله تعالى ، يحركها حيث يشاء ، وقف أبو الأسود من ذلك موقفًا مغايرًا ، فلم يدع إلى القعود عن السعي ، وعدم التفكير في الرزق ، بل إنّه على العكس من ذلك ، دعا إلى السعي الحثيث لتحقيقه والحصول عليه ، فالحياة لا تُنال بالتمني ، أو إحالة العجز والفشل إلى القضاء والقدر ، لذا على الإنسان السعي باستمرار لتحصيل رزقه ، وكسب عيشه ، وألاّ يكون كسله مبررًا لتحميل القضاء والقدر تبعات هذا العجز وأسبابه ، فما من سبب للفقر إلا الكسل والقعود عن الرزق ، والأبيات التالية جاءت بأسلوب تعليمي ، استخدم فيها الشاعر ضمير المخاطب ، كأنّه يوجّه شخصًا معينًا من الناس لهذه القيم السلوكية ، يقول :

وما طلبُ المعيشةِ بالتّمنّي ... ولكنْ ألقِ دلوَكَ في الدّلاءِ
تجئكَ بملئها طورًا وطورًا ... تجئكَ بحمأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعد على كسلِ التّمنّي ... تحيلُ على المقادرِ والقضاءِ
فإنّ مقادرَ الرحمٰنِ تجري ... بأرزاقِ الرجالِ من السماءِ
مقدّرةً بقبضٍ أو ببسطٍ ... وعجزُ المرْءِ أسبابُ البلاءِ

---

[1] المصدر السابق ، ص١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعضُ الرزقِ في دعةٍ وخفضٍ وبعضُ الرزقِ يُكسبُ بالعناءِ[1]

فالخمول والكسل وعدم السعي في مناقب الأرض لتحقيق الرزق أمور لا تتفق وزهد أبي الأسود ، و لم يكن ذلك إلا لقناعته وإيمانه العميق بضرورة السعي ؛ لأنّ القعود عنه لا يحصّل للإنسان طعامه أو شرابه ، وأنّ ذلك ليس من التوكّل ؛ لأنّ التوكّل عنده أن يعقد المرء النية الصادقة على البحث والعمل الدؤوب المستمر ، مع القناعة التامة بأنّ الله هو الرزّاق الكريم ، وأنّ الأمور كلّها موكولة له ، فلا تُطلب الحوائج إلا منه وحده ، وأنّ طلبها من غيره ضعف وخور وشك فيه ، فما دام الناس أجمعين عبيدًا لله ، وبيده رزقهم كلهم ، فلماذا تدعوهم ، وتطلب حاجتك منهم ، فمن أراد رزقًا ، فما عليه إلا التوجه إلى الله الذي سيعطيه بناءً على سعيه وفق ما قُدّر له ، ويتضح ذلك في مثل قوله :

وإذا طلبْتَ من الحوائجِ حاجةً فادعُ الإله وأحسنِ الأعمالا

فليعطينّكَ ما أرادَ بقدرةٍ فهو اللطيفُ لما أراد فعالا

إنّ العبادَ وشأنهم وأمورَهم بيدِ الإلهِ يقلّبُ الأحوالا

فدع العبادَ ولا تكن بطلابِهم لهجًا تضعضعُ للعبادِ سؤالا[2]

و لم تكن التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره هما القضيتان الوحيدتان اللتان وقف عندهما أبو الأسود في أشعاره الزهدية ، فقد تناول كذلك قضية التقوى والعبادة ؛ إذ دعا إلى الإكثار منهما من خلال الفرائض والنوافل ، والعبادة عنده كما هي عند غيره من زهّاد عصره خير ما يدّخر الإنسان في دنياه لآخرته ، وبالتقوى والعمل الصالح والصبر على نكبات الدنيا وتقلبات الدهر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجعل المرء لنفسه رصيدًا يوم الحساب ، يوم لا ينفع فيه الا ما ادّخر الإنسان في دنياه من العمل الصالح .

ومن المواقف التي يُستشفّ منها تقوى أبي الأسود وخشيته لله تعالى أنّه تحاكم عنده ذات يوم رجلان أبناء عمومة في خصومة بينهما ، وكان أحدهما صديقًا له ، فحكم لصالح

---

[1] المصدر السابق ، ص١٣٦ .

[2] المصدر السابق ، ص١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الآخر ، وكان محقًا ، فغضب صديقه منه ، فقال أبو الأسود مستلهمًا الإيمان بالله والخوف من عذاب يوم الحشر :

ولا تدعُني للجورِ واصبرْ على التي ... بها كنْتُ اقضي للبعيدِ على أبي

فإنّي امرؤٌ أخشى إلهي وأتّقي ... معادي وقد جرّبْتُ ما لم تجرّبِ[1]

ولا يجذ من لم يكن تقياً ورعاً احتراماً عند الشاعر ، ولا ينال صداقته أو حبه ، فالشاعر يقيس مروءة الإنسان واحترامه بالتزامه وعبادته وتقواه ، فقد روي أنه قال في صديق له وجده غير تقي ، ووجد ذكره لله تعالى قليلا ، فتركه وأعرض عنه ، وبرر ذلك بقوله :

فألفيْتُهُ غيرَ مستعتبٍ ... ولا ذاكرَ اللهِ إلا قليلا

ألست حقيقاً بتوديعه ... وإتباع ذلك صرماً طويلا[2]

ويكثر أبو الأسود الدؤلي من النصح والإرشاد بأسلوبه التعليمي ، فيقدم الدروس والعبر ، مشفوعة بأدلة من القرآن والحديث ، ويصوغ كل ذلك شعراً ؛ ليكون درساً يتعظ الناس به ، فالصبر على الشدائد ، وتحمل تبعاتها بإيمان وعبادة واحتساب ، يعد من الفضائل التي يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، وعليه ألا يتهافت وراء المطامع والمكاسب ما حل منها وما حرم ، لأنه لن ينال إلا ما قدر عليه :

إذا فاتَ شيءٌ فاصطبرْ لذهابِهِ ... ولا تتبعنَّ الشيءَ إنْ فاتك الجزعْ

ففي الناسِ عما فات عزٌ وراحةٌ ... وفيه الغنى والفقرُ يا ضافي الطمعْ[3]

ومن المعاني التي تعرض لها الشاعر زوال الدنيا وتحقيرها ، فالدنيا عنده ، كما جاء ذكرها في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأشعار سابقيه ومعاصريه من زهاد المسلمين ، ذميمة دنيئة قصيرة ، لا خلود فيها ولا استمرار ، وما هي إلا دار ممر تؤدي إلى دار مستقر ، فهي غرّارة يغترّ الإنسان بها ويطمع ، ولكنها سرعان ما تحصده وتجعله شيئاً لم يكن ، وهو ما

---

[1] المصدر السابق ، ص٣٤ .

[2] المصدر السابق ، ص٣٨ .

[3] المصدر السابق ، ص١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زال يسعى ليحصد من خيراتها التي غرّته وشغلته ، لذلك أعرض عنها أبو الأسود واستخفّ بها في مثل قوله :

و لم أر كالدنيا بها اغترّ أهلُها　　　ولا كاليقينِ استوحش الدهرَ صاحبُهْ[1]

فالشاعر يقنع بالزوال المحتوم ، فيحاور الإنسان المتهالك على الدنيا ، ويصفه بالسفيه الآمل بما ليس له ، ويذكّره بأن الإنسان قد يمضي أيامه ولياليه ، وهو يحلم ويمني نفسه الأماني ؛ أملاً منه أنّه سيحقق كل ما تصبو إليه نفسه ، فيحول الموت دون تحقيق مآربه ؛ لذلك نجده في الأبيات التالية يوجّه نصحه للناس بأن يتنافسوا في عبادة الله وإحسانهم ، ولا يتزاحمون في رزقهم ، ويحسدون بعضهم بعضًا ، يقول :

أيّها الآملُ ما ليس له　　　ربّما غرّ سفيهًا أمَلُهْ
ربّ من باتَ يمنّي نفسَهُ　　　حالَ من دونِ مناه أجلُهْ
قلْ لمن مثّل في أشعارِهِ　　　يهلكُ المرءُ ويبقى مثلُهْ
نافس المحسنَ في إحسانِهِ　　　فسيكفيكَ سناءً عملُهْ[2]

والشاعر لا يؤيد من يجمع المال ويقوم باكتنازه ؛ لأنّ المال سرعان ما يزول ، ولا ينفع جامعه إلا تعبه وجهده وكدّه ، فيعود فقيرًا لا يملك شيئًا ؛ وفي مقابل ذلك يدعو الشاعر إلى ادّخار ما هو خير من المال ، ألا وهو العلم الذي لا يزول ولا يُسلب ، فلا يخاف عالم على علمه من السرقة أو النفاذ ، وكأنّه يعقد مقارنة بين المال والعلم ، فيفضل الأخير في مثل قوله :

قد يجمعُ المرءُ مالاً ثمّ يسلبُهُ　　　عمّا قليلٍ فيلقى الذلّ والحربا
وجامعُ العلمِ مغبوطٌ به أبدًا　　　ولا يحاذرُ منه الفوتَ والسلبا
يا جامعَ العلمِ نعمَ الذخرُ تجمعُهُ　　　لا تعدلنَّ به درًّا ولا ذهبا[3]

---

(1) المصدر السابق ، ص١٣١ .

(2) الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣٠ ، وينظر : الأندلسي : العقد الفريد ، ج٣ ، ص١٩٠ ، وهذه الأبيات ليست موجودة في طبعتي الديوان .

(3) أبو الأسود الدؤلي : ديوانه ، ص١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأبي الأسود أبيات يذكر فيها تقلب الزمان الذي ذهب بالرجال الصالحين الذين يُقتدى بهم وبفعالهم ، وهو بذلك يعظ الناس ويذكّرهم بأنّهم يسلكون الطريق نفسها التي سلكها أسلافهم ؛ لذلك عليكم أيّها الناس أن تستعدّوا لما بعدها ، وأن تكثروا من الأعمال الصالحة ليوم لا ينفعكم فيه مال ولا بنون ، ويعيب الشاعر على الناس لحزنهم إذا أصابتهم مصيبة في أموالهم ، وأنّهم لو أصابتهم تلك المصيبة في أعراضهم أو دينهم ، لما جزعوا ، يقول :

ذهبَ الرّجالُ المُقتدى بفعالِهم ... والمنكرون لكلّ أمرٍ منكرِ

وبقيتُ في خلفٍ يزكّي بعضهم ... بعضًا ليُدفعَ معورٌ عن معورِ

فطنٌ بكلّ مصيبةٍ في مالِهِ ... وإذا أُصيبَ بعرضِهِ لم يشعرِ[1]

يستمد الشاعر الإسلامي معانيه وأفكاره من الإسلام ، ممثلاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ،لا سيما إذا كانت هذه المعاني والأفكار تدور في فلك الدين والتدين ، وهذا لا يعني أن الإسلام فصل العرب عن تاريخهم وماضيهم ولغتهم وتراثهم ، بل هذب ألفاظهم ، وانتقى عباراتهم ، وأبعدهم عن وحشي الكلام وغريبة ، فجعلهم يرتقون بألفاظهم ومعانيهم إذا أحل بذلك معان لم تعرفها العرب من قبل.

[1] المصدر السابق ، ص١٥٥ ــ ١٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

- اللغة في شعر الزهد ١١٨ — ١٢٧
- التأثّر والتأثير في شعر الزهد ١٢٨ — ١٢٥
- أثر معاني القرآن في شعر الزهد ١٢٦ — ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة في شعر الزهد :

تتميز اللغة في شعر الزهد بأنّها تهدف إلى وصف ما يجب أن يسلكه الإنسان في حياته اليومية استعدادًا للآخرة ، فشُغل الشعراء بالتفكير في معاني الزهد التي يريدون التعبير عنها ، وكان يشغلهم كذلك أن يوصلوا معانيهم إلى سامعيهم أو قارئيهم بطريق مباشر ، فهم لا يشغلون في غير ذلك ، أو فيما يخرج عنه ، والذي قد يعيق تقرير معاني الزهد في النفوس .

اتصفت أشعار الزهّاد بالسهولة ، وعدم الغرابة ، والبعد عن التصنع ، ولو تصفحنا ما قيل في الزهد من قصائد أو مقطوعات ، لوجدنا الشعراء قد بدءوها بالوعظ أو بالدعوة إلى القناعة ، والتذكير بالموت والحساب يوم الحشر ، ولعلّ مرد سهولة اللغة في شعر الزهد ، واقترابها من لغة الحياة اليومية ، يرجع إلى أنّ هذه الأشعار تنطوي على قيمة خلقية وفكرية ، و لم تكن الطبقة المخاطبة ممن ترغب في اللغة الجزلة والأسلوب الرفيع ، قدر رغبتها في المعنى الطريف ، كما أنّ شعراء الزهد ليسوا ممن يكترث بالتكلف والتشدق وتعقيد الكلام ؛ لأنّ موضوعه قريب إلى النفس ومحبّب إليها ، لهذا كان من الضروري اختيار عناصر لغة شعر الزهد من واقع الحياة اليومية ؛ ليفهمها الناس فهمًا مباشرًا ، ويتأثرون بمعانيها ، فتحدث الاستجابة المطلوبة .

يقول أبو العتاهية في لغة شعر الزهد : إنّها ليست من مذاهب الملوك ، ولا طلاّب الغريب ، وهو مذهب أشفق الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه[1] ، فصيغت الأشعار بما يتناسب مع المتلقي ، فكانت لغة شعر الزهد جرّاء ذلك " قريبة من الصياغة النثرية ، وتشبه الخطبة الوعظية "[2] .

ولعلّ من الأمور التي تساهم في أن يكون أسلوب أشعار الزهد واضحًا بعيدًا عن التكلف ، هو أنّ كثيرًا من شعراء الزهد في هذه الفترة غير مختصين بالشعر ، و لم تشتهر أسماؤهم فيه ؛ لذلك كانوا يعبرون في أشعارهم عما يدور في خلجات صدورهم دون عناية

---

[1] الأصفهاني : الأغاني ، ج٧ ، ص٧٤ .

[2] مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، ص٧٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فنيّة كبيرة ، وغالبًا ما نجد الشاعر يضع أفكاره في مقطوعات تحمل أفكارًا جزئية ، تعبر عن بعض المجاهدات والرياضات التي يعيشها ، ويرغب في نقلها للناس ، بالإضافة إلى ذلك ، فإنّ الظروف السياسية والاجتماعية وغيرها من الظروف التي حاقت بالدولة الإسلامية في عهد بني أمية ، جعلت لغة شعر الزهد أكثر تأثيرًا في عواطف الناس وأفكارهم ، فكان لا بدّ لهذه اللغة أن تتسم بسمات خاصة معينة .

واللغة عند شاعر الزهد تعتمد أصلاً " على عاطفة الزهد ، وتنبع هذه العاطفة من عدة قيم تعيش بداخله ، وهذه القيم هي تراث الزاهد ، فشعره إذن يمثل فكره ، والشاعر لا يتحدث من فراغ ، ومن ثمّ تتحول الفكرة إلى قيمة تعايشه ، وتحول الإنسان فيه إلى سلوك عملي "[1] .

ومن أهمّ الأمور التي أثرت في لغة الشاعر الزاهد في هذه الفترة القيم الدينية التي مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لفظًا ومعنًى ، فقد كانت المنهل الأول الذي يستقي منه الشاعر ألفاظه وأفكاره ومعانيه ، فكرر صورة الدنيا المذمومة كما صورها القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وصور الآخرة بالألفاظ والمعاني الدينية ، وتحدث عن الموت والحساب والعقاب بذات الصور التي رسمها الله سبحانه وتعالى من خلال القرآن الكريم في أذهاننا ؛ لذلك كله ، تحولت هذه القيم الدينية إلى سلوك فهمه الشعراء ، وعملوا به ، وكمل أثرت في نفوسهم وسلوكهم ، فقد أثرت في لغتهم أيضًا ، فكان نتيجة التعلم في مدرسة الإسلام على يدي الرسول عليه السلام أن وُجد شعراء يحملون من الرقة والعاطفة الدينية ما يوهلهم ليكونوا زهّادًا وعبّادًا لله تعالى ، فأصبح منهل ألفاظهم ومعانيهم ينبثق من فكرة الحياة والموت والبعث والزوال والتقوى . ولعلّ أول السمات الفنية التي تطالعنا في أشعار الزهد السهولة التي تمنح هذا الصنف من الشعر القاعدة الشعبية الواسعة من الناس ، فهذا كلام سهل لا خشونة فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ، ولا ينكره الجاهل ، وقد أدت أشعار الزهد معانيها

---

[1] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيسر وسهولة ، فاستخدم الشعراء ألفاظًا بسيطة سهلة تلامس شغاف القلـــوب ، وتحـرك العاطفة فيها ، ومن ذلك ما قاله سابق البربري :

لن ينفعَ الذكرُ قلبًا قاسيًا أبدًا ... وهل يلينُ لقولِ الوعظِ الحجرُ[1]

ولا تعني سهولة الألفاظ وبساطتها أنّها تحوي معاني سطحية ، أو قضايا قليلة الاهتمام ، بل على العكس من ذلك ، فبساطتها لا تمنع وجود المعاني العميقة المؤثرة في النفوس ، والـتي تثير فيها عاصفة من الخوف والاتعاظ بما يُسمع أو يُقرأ ، ومن ذلك ما قاله عمر بـن عبـد العزيز في الوعظ :

انظر لنفسكَ يا مسكينُ في مهلٍ ... ما دامَ ينفعُكَ التفكّرُ والنظرْ

ففيهم لك يا مغرورُ موعظـةٌ ... وفيهم لك يا مغترُّ معتـبرُ

والسهولة والبساطة سمة غالبة في هذه الأشعار ، وليس هناك حاجة إلى ذكرها كلـها ، لذلك نكتفي ببعضها على سبيل التمثيل لا غير ، فمحمد بن يسير يعبر في الأبيات التالية عـن حزنه وخوفه من الموت وما بعده بعبارات بسيطة لا يبعدها عن النـثر إلا القافية والـوزن ، ويستخدم فيها بعض العبارات والألفاظ الدارجة على ألسنة العامة ، يقول :

ويلٌ لمـن لـم يرحـم اللهُ ... ومن تكونُ النارُ مثواهُ

يا حسرتي في كلّ يومٍ مضى ... يذكرني بالموتِ وأنساهُ

من طالَ في الدنـيا عمـره ... وعاشَ فالموتُ قصاراهُ

كأنّه قد قيـلَ في مجلـسٍ ... قد كنتُ آتيه وأغشاهُ

صارَ اليسيريُّ إلـى ربـّه ... يـرحمـنا اللهُ وإيـّاهُ[2]

وعدا عن التعبير السهل المباشر في معانيه وألفاظه ، فإنّه يستخدم عبارات (ويل لمـن ، يا حسرتي ، يرحمنا الله وإيّاه) وهي عبارات تدرج على لسان عامة الناس ، عـدا عـن أنّ الفكرة التي يتحدث عنها الشاعر في الأبيات مطروقة ومعروفة عند الناس ، فالشـاعر يحـزن

---

(1) الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٥٥ ــ ٣٥٦ .

(2) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص٣٩ ــ ٤٠ ، وينظر : الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٩ ، ص١١٣ ، والمرزباني : معجم الشعراء ، ص٣٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتحسر على يوم يأتي بعد موته ، ويقول الناس فيه : مات محمد بن يسير ، يرحمنا الله وإيّاه ، إلا أنّه نجح في جعل عباراته ومعانيه تلامس القلوب ، وتعطيها درسًا في الوعظ ، وتوجه الناس ؛ جرّاءَ ذلك ، للعبادة والتقوى .

وقد تزيد نقمة العنف في بعض أشعار الزهد ، إذ يستخدم الشاعر العبارات الدالة على الزجر في مخاطبة الناس عند وعظهم ، كما فعل سابق البربري الذي زجر الناس ووبخهم ، حين قال لهم : إنّكم لا تنزجرون ، ولا تتعظون ، والبهم تزجر إذا زجرها راعيها ، لكن الشاعر يعود بعد ذلك إلى الرقة واللين ، فينهى عن البطر والتمسك بالدنيا ، وهو هنا يستخدم ضمير المخاطب في لغة الزاهد الواعظ المرشد ، ويستخدم الأسلوب التعليمي القائم على الأمر والنهي والنصح ، يقول :

ولسيس يزجركم ما توعظون به ... والبهمُ يزجرها الراعي فتنزجرُ
أصبحتم جزرًا للموتِ يقبضكم ... كما البهائمُ في الدنيا لها جزرُ
لا تبطروا واهجروا الدنيا فإنّ لها ... غبًّا وخيمًا وكفرُ النعمةِ البطرُ[1]

فعامة لغة الزهد تكون رقيقة الألفاظ ، قوية الرنين ، تفحم الأسماع بما فيها من دلالات على التخويف والتحذير ، وبما يصطنعه فيها الشاعر الزاهد من رقة العاطفة وبساطة النسيج اللغوي .

ومن السمات الهامة التي تبرز في لغة شعر الزهد في هذه الفترة ، هي اختلاط هذه الأشعار بالحكمة والمثل ، فكثيرًا ما يستخدم الشاعر الحكمة أو المثل ؛ لتأكيد فكرته ، أو الاستدلال بها على معنًى جديد ، أو فكرة يرغب في إيصالها إلى ذهن المتلقي ؛ لأنّ الحكمة أو المثل في الشعر تقرّب المعاني المطروحة من أذهان الناس وقلوبهم ، كلما اعتنى الشاعر بها أكثر . ولعلّ شعر سابق فيه من الحكم والأمثال ما يجعل هذه السمة تغلب على أشعاره ، ولا تكاد تفارق قصيدة أو مقطوعة مما قال من أشعار ، ومن حكمه المشهورة قوله :

النفسُ تكلفُ بالدنيا وقد علمتْ ... أنّ السلامةَ فيها تركُ ما فيها[2]

---

[1] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٠٠ .

[2] المصدر السابق ، ص١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد غدا هذا البيت مثلاً يقال في كل مقام أو مناسبة ؛ لما فيه من معانٍ عميقة تناسب مواقف كثيرة في حياة الناس ، وتعبر عما يجيش في نفوسهم ، وقد عبر الشاعر من خلال تقديم عصارة فكره وتجاربه ، واعظًا الناس ونفسه ، فرأى أنّ الأمهات يدفعنَ أبناءهنّ إلى الموت ، وتطرق إلى بناء البيوت ، ومآلها إلى الخراب في يوم ما ، يقول :

وللموتِ تغدو الوالداتُ سخالها كما لخرابِ الدورِ تُبنى المساكنُ[1]

ويمثل الطرماح بن حكيم حياة الناس في دنياهم ، ثمّ موتهم وانقضاء اجلهم ، بالسيف أو بالهرم أو بغيره ، فيصور الموت بالحصاد ، والحياة بالزرع ، فالناس كالزرع الذي يتجدد كلّ عام ، وهم يتعاقبون أجيالاً تليها أجيال ، وهذا المثل أصبح حكمة يتداولها الناس لسهولة ألفاظها ، وقدرتها على التعبير عن كثير من مواقف الحياة المناسبة ، يقول :

إنّ الناسَ مثلُ نابتةِ الزر ع متى يأن يأتِ محتصدُهْ[2]

ومن السمات الهامة التي يجب الإشارة إليها في لغة شعر الزهد في هذه الفترة ظاهرة التمييز في استخدام الأُسلوب الإنشائي ، وفي ذلك تحقيق للتآلف والتقارب بين الشاعر والمتلقي ، مما يساعد على جعل لغة الزهد سهلة بسيطة واضحة الأهداف ، ويتحقق ذلك باستخدام النداء ، وأساليب الاستفهام والنهي ، والتعجب والتكرار والتصغير ، وغيرها .

فالشاعر في البيت التالي يستخدم النداء ، بقوله : (يا رب) ، والدعاء بقوله : (هب لي التقى والصدق في ثبت) ، ويتمنى على الله أن يكفيه رزقه ، ويتشكل ذلك في إطار لغوي سهل ولا يجد المتلقي فيه صعوبة ، أو حاجة إلى التعمق الفكري لفهمه :

يا ربِّ هب لي التقى والصدق في ثَبَتٍ وأكفُ المهم فأنت الرازق الكافي[3]

ويتضح الأُسلوب الإنشائي في الاستفهام والتعجب أيضاً ، في مثل قول علي بن الحسين في البيتين التاليين ، حيث يستذكر الشاعر خلالهما تمسك الإنسان وتهالكه على الدنيا ، وتخاذله عن الآخرة ، وتقصيره في القيام بواجباته الدينية ، فيخسر بذلك الدنيا والآخرة ، ثم

---

(1) المصدر السابق ، ص١٢٤ .

(2) نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص٣٤ .

(3) إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، ص٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يوجه الشاعر سؤالاً لهذا الغافل الذي ضلّ طريقه ، ويقول له : إذا أتاك حتفك بغتة ، فهل تجد لنفسك عذراً تعتذر به عند ذلك ؟! ، يقول :

تخرّبُ ما يبقى وتعمرُ فانيًا ... فلا ذاك موفورٌ ولا ذاك عامرُ

وهل لك إن وافاك حتفُكَ بغتةً ... و لم تكتسبْ خيرًا لدى اللهِ عاذرُ[1]

ولعلّ الأبيات لا تحتاج إلى مزيد من التعمق في التفكير ، فعباراتها واضحة وسهلة وبسيطة ، غرضها إثارة مكامن النفس البشرية ، فيشعر الإنسان الذي ضلّ طريقه بخطيئته ، فيعود إلى رشده ، وكأنّ الشاعر يجري حواراً مع العقل ، ويلامس عاطفة القلب في آن معًا. ومن الأشعار التي استخدم فيها الشاعر النداء والتوسل لله تعالى ، قول أبي بلال مرداس بن أدية الذي يتزلف لله تعالى ، ويطلب الشهادة في سبيله ، بعد ان سئم من الحياة الدنيا :

إلهي هب لي زلفةً ووسيلةً ... إليك فإنّي قد سئمْتُ من الدهرِ[2]

والحقيقة أنّ الأشعار التي استخدم فيها النداء والتوسل والتعجب والاستفهام كثيرة ، وهي تتناسب ولغته وأدعيته المحكيّة التي يتناولها في حياته اليومية ، ولعلّ مناسبة استخدام الدعاء والتمنّي والتزلف والتوسل يكون عندما يوجّه الخطاب لله تعالى ، وأمّا عندما يُوجّه الخطاب للناس ، فإنّه يستخدم الاستفهام المُراد منه التعجب من ضلالهم ، وتوبيخهم على ذلك ، ولو نظرنا إلى الأمثلة التالية لأدركنا ذلك ، فهذا الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يخاطب واعظًا ، فيقول :

أيقظانُ أنت اليومَ أم أنت نائمُ ... وكيفَ يطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ[3]

ويقول محمد بن يسير في التعجب :

عجبًا لي ومن رضائي بحالٍ ... وأنا فيها على شفا تغريرِ[4]

---

(1) الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٩٧ .

(2) نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص٦٥ .

(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١٨٥ .

(4) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعظ سابق البربري في البيتين التاليين ، فيستخدم لغة الخطاب التعليمي التي تجعل تقاربًا بين الشاعر والمتلقي ، ويجعلنا لا نميز إن كان الخطاب موجها لنفسه أم إلى الناس ، يقول :

فحتى متى تلهو بمنزلِ باطلٍ ... كأنّك منه ثابتُ الأصلِ قاطنُ

وتجمعُ ما لا تأكلُ الدهرَ دائبًا ... كأنّك في الدنيا لغيرك خازنُ[1]

ويبدو أنّ شيوع مثل هذا الأسلوب اللغوي يرتبط بنفسية الشاعر وميوله ومدى تأثره الروحي ، فالتوجه بالدعاء والتمني والتزلف لله سبحانه وتعالى يتناسب مع الخشوع والتقرب الروحي من الله ، كما أنّ الاستفهام الاستنكاري والتعجب يتناسب مع الثورة على الفساد والنفاق والبعد عن الدين ، لا سيما وقد شهد العصر الأموي ما شهده من تقلبات سياسية واقتتال داخلي وتمزق وتفرق إلى شيع وأحزاب ، فانتفض العبّاد والنسّاك والزهّاد ، معلنين خروجهم على ذلك كله ، ملتزمين بما أمر الله ، وداعين إليه .

وتتميز لغة شعر الزهد في هذه الفترة أيضاً بأنها لغة خطابية تعليمية ، إذ كثيراً ما يوجه الشاعر النصائح والإرشادات في أسلوب تعليمي يتوجه إلى الناس به ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ولعل استخدام ضمير المخاطب في هذه الأشعار بكثرة يوضح ذلك ، فالشاعر يعطي المتلقي عصارة فكره بعبارات سهلة بسيطة ، تتميز بسهولة الحفظ والتداول والفهم ، ويظهر في البيتين التاليين لعلي بن الحسين الخطاب التعليمي بشكل واضح ، وكأن الشاعر رجل مجرب خير الدنيا وتقلبها وزيفها ، فيوصي من حوله سواء السبيل ، ولعل العبارات التي استخدمها تدل على ذلك دلالة واضحة مثل قولة : (فجد ولا تغفل ، كن متيقناً ، فشمر ولا تغتر ، فعمرك زائل) يقول :

فجدْ ولا تغفلْ وكنْ متيقّناً ... فعمّا قليلٍ يترك الدارَ عامرُ

فشمّرْ ولا تغترْ فعمرك زائلٌ ... وأنت إلى دار الإقامةِ صائرُ[2]

فالشاعر يوصي بالعبادة والتقوى ، ويحذّر من غرور الدنيا ، ويذكر بقصر العمر وزوال المرء عن الدنيا إلى الآخرة ، وهذا مروان بن الحكم الخليفة الأموي ، ينظم في أبياته درساً

---

[1] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٣٢ .

[2] ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١١٠ ، وينظر : الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعليمياً ، تنسجم فيه بساطة اللغة وسهولتها مع لغة الخطاب التعليمي ، بالإضافة إلى عمق المعنى وقيمة الفكرة الرفيعة ، والتي تقوم على التركيز والاختصار ، ومفادها التحذير من الدنيا والتذكير بالآخرة وضرورة العمل من أجلها ، فالعمل مع الإنسان يوم البعث ، والمال موروث بعد الموت ، يقول :

اعملْ وأنت من الدنيا على حذرٍ ... واعلمْ بأنّك بعد الموتِ مبعوثُ

واعلمْ بأنّك ما قدّمْتَ من عملٍ ... محصى وما خلّفْتَ موروثُ[1]

فالفكرة التي تحملها الأبيات لا يستغربها العاقل ، ولا يرفضها الجاهل ، فهي بسيطة في ألفاظها وتراكيبها ، لكنها كبيرة عميقة في معانيها وأهدافها ، ويعبر محمد بن عبد الله بن مسلم بن المولى* عن فلسفة الإنسان المادية في الحياة الدنيا فيسجل ذلك بلغة سهلة بسيطة غير معقدة ، فلا يحتاج إلى توضيح أو شرح أو تسهيل ، ومفاد هذا الدرس أنّ الإنسان قد يعمل ويجد في كسب ماله ، ويحرم نفسه من هذا المال الذي يجمعه ويحرص عليه ، فيغني نفسه وينفق وقته في السعي له ، ثم يؤول بعد موته للوارثين القاعدين ، يقول :

المرءُ يحرمُ نفسَهُ ... ما لا يزال به حزيناً

وتراه يجمعُ مالَهُ ... جمع الحريصين الوارثينا

يسعى بأفضلِ سعيِهِ ... فيصير ذاك لقاعدينا[2]

ويهدف الشاعر من هذا الدرس إلى إثارة النفس للعزوف عن حب المال ، ويحرضها على استبدال ذلك بالعبادة والتقوى ، بالإضافة للاستهانة بمن يحرم نفسه من ماله ويتركه للقاعدين والورثة ، وهذا عمرو بن أحمر يعلن في نهاية درسه أنه لا يوجد مثله في معرفة ما ينفع وما يضر ، وهو يستخدم التضاد والتغيير في المعاني ؛ ليحدث تأثيراً مميزاً في نفس السامع ، فيستخدم عبارات مثل : (الغنى والفقر) و (الحي والميت) و (حلو ومرّ) ، ويقصد من ذلك أن يعلمنا أنّ الدنيا تتقلب بالإنسان وتغدر به ، فلا يستقر على حال ، فقد يكون فقيراً

---

[1] نبال تيسير حماش : شعر الخلفاء ، ص١٢٤ .

* من الأنصار ، شاعر متقدم مجيد ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية .

[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٢٩٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيغنى ، وقد يكون غنياً فيفقر ، ويكون حياً فيموت ، فلا بد إذاً من الحذر وعدم الاطمئنان للدنيا ، يقول :

إنّ الفتى يقترُ بعد الغنى ... ويغتني من بعدما يفتقرُ

والحي كما الميت ويبقى التقى ... والعيش فنّان فحلو ومر[1]

وتتميز لغة شعر الزهد في العصر الأموي كذلك بالإكثار من استخدام أفعال الأمر التي ترتبط بالخطابية التعليمية بهدف النصح والإرشاد ، فالشاعر يخاطب نفسه أو ابنه أو الناس جميعاً بعبارات من مثل قوله : (توكل على الله ، هوّنْ عليك ، كن متيقناً ، فجدّ ، شمّرْ ، اعلمْ ، واعملْ) ، كما يظهر ذلك في أشعار مروان بن الحكم وعلي بن الحسين في الأبيات السابقة ، ومثل ذلك أيضاً قول أبو الأسود الدؤلي الذي استخدم فعلي الأمر (توكّلْ) و(حمّلْ) ، وهو ينصح المتلقي بضرورة الإيمان بأنّ قضاء الله لا راد له ، يقول :

توكّلْ وحمّلْ أمرَكَ اللهَ كلّهُ ... بأنّ قضاءَ اللهِ يأتي على مهلِ[2]

وترتبط أفعال الأمر بالخطاب ، فلا بدّ لفعل الأمر من عنصرين : آمر ومتلقٍّ ، وفي أشعار الزهد يكثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقوم أشعارهم على الدعوة إلى الاتعاظ والقناعة ، ومثل ذلك ما قاله عمر بن عبد العزيز داعياً الناس إلى الاتعاظ والتفكير بأنفسهم وما حولهم ، فاستخدم فعلي الأمر (انظر) و(قف) ، وهي أفعال تدعو المسلم إلى التوقف عن ملاحقة الحياة الدنيا وتجاهل الآخرة ، وتدعو إلى النظر في المقابر ، وماذا تستر ، وماذا تخفي ؛ لعله يجد في ذلك لنفسه موعظة وعبرة ، يقول :

انظرْ لنفسك يا مسكينُ في مهلٍ ... ما دام ينفعك التفكّرُ والنظرُ

قفْ بالمقابرِ وانظرْ إن وقفتَ بها ... لله درُّكَ ماذا تستر الحفرُ[3]

---

(1) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج٣ ، ص١١٢ .

(2) عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، مطبوعات الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية ـ الرياض ، ط١ ، ١٩٧١ ، ص١٩٠ .

(3) الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشتمل أبيات سابق البربري التالية على أغلب ما تميزت به لغة شعر الزهد في هذه الفترة من سمات ، فقد أكثر من أفعال الأمر واستخدم أسلوب الخطاب والحوار ، بالإضافة إلى الحكمة والموعظة التي مثلتها الأبيات ، وقد وعظ عمر بن عبد العزيز فيها ، وكأنه يلقنه درساً مهماً ويعلمه نهجاً مفيداً في الحياة ، يقول :

إن كنْتَ تعلم ما تأتي وما تذرُ ... فكنْ على حذرٍ قد ينفع الحذرُ

واصبرْ على القدرِ المقدورِ وارض به ... وإن أتاك بما لا تشتهي القدرُ

فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسرُّ به ... إلا وأعقبَ يوماً صفوَهُ كدرُ[1]

فشعر الزهد بطبيعته التي جاء عليها ، وأهدافه التي نظم من أجلها ، منسجم مع أسلوب الخطاب التعليمي ، وشاعر الزهد عندما ينظم أشعاره ، لا ينظمها لنفسه فحسب ، بل ينظمها بقصد التأثير بها على الآخرين ، لذلك نجد الشاعر يتخير الألفاظ والمعاني التي تلامس القلوب ، وتؤثر في النفس ، وتعطي درساً تعليمياً يقوم على الوعظ والإرشاد والتذكير ، وكان دستورهم في ذلك القرآن الكريم والسنة الشريفة ، بالإضافة إلى التمثل بالتاريخ للاتعاظ بمن سبق من الأجيال والأمم ، ورسم صورة مشرقة للمستقبل وهي الجنة المرتقبة ، لذلك نستطيع القول : إنّ السمة الغالبة على لغة شعر الزهد أنها خطابية تعليمية وعظية ، سهلة تلامس قلوب معظم الناس ، وتؤثر فيهم .

---

[1] المصدر السابق ، ص٣٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التأثر والتأثير في شعر الزهد :

يستمدّ الشاعر الإسلامي معانيه وأفكاره من الإسلام ممثلاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، لا سيّما إذا كانت هذه المعاني والأفكار تدور في فلك الدين والتدين ، وهذا لا يعني أن الإسلام فصل العرب عن تاريخهم وماضيهم ولغتهم وتراثهم ، بل هذب ألفاظهم ، وانتقى عباراتهم ، وأبعدهم عن وحشي الكلام وغريبة ، فجعلهم يرتقون بألفاظهم ومعانيهم ، إذ أحل بذلك معاني لم تعرفها العرب من قبل " وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ابتدأها ابتداء مثل : الفرقان والكفر والإيمان والإشراك والإسلام والنفاق والصوم والصلاة والزكاة والتيمم والركوع والسجود ، وغير ذلك من كلمات الدين الحنيف "[1] .

وبما أن فكرة التدين قديمة ، موغلة في القدم ، حيث تمتد في جذورها إلى أزمان سحيقة ، فإنّ العصر الجاهلي كان فيه خليط من الديانات الوثنية ، وغير الوثنية ، مما جعل لهم فلسفات مختلفة في الدين ، ولعلّ ما يهمنا هنا ما تطرّق إليه بعض الشعراء الجاهلين من دعوة التدين والزهد في الدنيا ، وتأثر فيه الشعراء اللاحقون في الأجيال اللاحقة من بدايات الدعوة الإسلامية .

والشعراء الأحناف واليهود والمسيحيون ، كان لهم صولات في الدعوة إلى التقوى والزهد في الدنيا ، فكان لأفكارهم ومعانيهم ظلال واضحة في موضوعات متعددة في شعر الزهد في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي ، ولعل فكرة الحديث عن الزوال والفناء عن هذه الدنيا ، والاستشهاد بالأمم السابقة ، هي من أكبر الأمثلة وضوحاً على تأثر الشعر الجاهلي الزاهد بمثيله الإسلامي ، ويبدو أنّ مرد ذلك هو أنّ فكرة الزوال والفناء وتدمير الحضارات ذات القوة والجاه هو أمر عادي يدركه الإنسان البسيط في حياته اليومية ، فيعلم الجاهلي أن قوم عاد وثمود وغيرهم من الأقوام والملوك الجبابرة قد غلبهم ودثر حضارتهم ، وهذا الأمر لا يحتاج إلى رسالة سماوية وهدي غيبي كالذي ظهر بوضوح بعد إشراق نور الإسلام ، والذي جعل التأثر والتأثير واضحاً في العصور المتعاقبة فيما بعد .

---

[1] شوقي ضيف : العصر الإسلامي ، ص٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلو نظرنا لقول عدي بن زيد الجاهلي في الاستشهاد بزوال الأمم السابقة في فناء كل المخلوقات قويها وضعيفها :

أين أهلُ الديارِ من قومِ نوحٍ ثم عادٍ من بعدهم وثمودُ[1]

وقوله أيضاً :

أين كسرى كسرى الملوك أنو شروان أم أين قبله سابورُ[2]

وقول زهير بن أبي سلمى :

ألم تر أنّ اللهَ أهلك تُبّعاً وأهلك لقمانَ بنَ عادٍ وعاديا[3]

لوجدنا أنّ هذه الأفكار والمعاني وغيرها ، قد أثرت في الشعراء المسلمين من بعد ، حيث استخدموا المعاني والأفكار ذاتها ، واستشهدوا بهذه الأقوام التي زالت ودمرت ، فكانت عبرة لمن يعتبر ، ومن الشعراء المسلمين الذين تأثروا بمثل هذا المعنى الأسود بن يعفر في قوله :

أباد الأولين وكل قرنٍ وعاداً مثلما بادت ثمودُ[4]

فالشاعر هنا يكرر الفكرة نفسها بمعناها وبعض ألفاظها ، فقد أشار إلى زوال هذه الأمم ، وجعل ذلك منسوباً لله تعالى لقيام الإسلام على التوحيد ، وهو الأمر الذي لم يظهر في أبيات عدي بن زيد وزهير بن أبي سلمى اللذين أشارا إلى زوال هذه الأقوام وحسب .

ولعل الأحوص المشهور بالغزل في العصر الأموي لم يعزل نفسه كلّيًا عن القول في الزهد ، إذ تأثر بالفكرة التي طرحها عدي بن زيد وزهير بن أبي سلمى ذاتها ، فقد أشار إلى أن الدهر لا يأمنه إنسان ؛ لأنّه خانَ عاداً وثموداً ، وهي من الأمم التي بلغت مبلغاً عظيماً من القوة والاستقرار ، ولعل تأثره بأبيات عدي وزهير يظهر في قوله :

من يأمن الدهرَ أو يرجو الخلودَ به بعد الذين مضوا من سالفِ الأممِ

ليس امرؤٌ كان عيشٌ يُسرُّ به يوماً بأخلدَ من عادٍ ومن إرَمِ[5]

---

(1) الأصفهاني : الأغاني ، ج٢ ، ص١٥٢ .

(2) المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٥٢ .

(3) أحمد طلعت : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار القاموس الحديث ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٠م ، ص١١٦ .

(4) الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(5) البحتري : حماسة البحتري ، ص٩١ ، وينظر : الزير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمتد هذا التأثير ليطال العصر الأموي فتتكرر فيه الأفكار والمعاني نفسها ، لكنّها تنـــتظم بنسيج تظهر فيه خيوط الزهد بشكل أوضح ، إذ يتخطى الشاعر الفكرة المباشرة في العصر الجاهلي ، ومجرد ربطها بالدين والإسلام في عصر صدر الإسلام ، إلى دعوة جدّيه إلى الزهد بالدنيا وذمـــها وترك زخرفها الزائل ، فلا جدوى من ملاحقتها ، وهذا ما نجده عند سابق البربري الذي وصـــف الدنيا بأنها غرّارة ذميمة تغرّر بالناس حتى يخطفهم الموت ، فيتركوا ما جمّعوا وما بنوا من بيـــوت وقصور ، ويستشهد على ذلك بالأقوام السابقة كقوم عاد وثمود ، فمن قوله في ذلك :

أين الملوكُ التي عن خطبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأسِ الموتِ ساقيها
غرّتْ زمـــاناً بملـــكٍ لا دوامَ له ... جهلاً كمـــا غرّ نفساً من يمنّيها
وصبحّتْ قوم عـــادٍ في ديارهم ... بمقـــطعٍ يـــومٍ عادهمْ عواديها
ولُبّعاً وثمودَ الحجـــرِ غادرهـــم ... ريـــبُ المنونِ رميماً في مغانيها[1]

ومثل ذلك قول محمد بن خالد بن الوليد* :

أين الملوكُ وعيشُهم فيما مضى ... وزمانُهم فيه وما قد جمّعوا[2]

وليست قضية الاستشهاد بالأمم السابقة والحديث عن زوالها ، هي القضية الوحيدة الـــتي طالها التأثر ، ففكرة المال وجمعه والحرص عليه والتهالك في حمايته ، ومن ثم موت صاحبه وتركـــه لغيره من الورثة الذين لم يسعون في تحقيقه ، هي قضية تأثر فيها اللاحق بالسابق ، وهي فكرة تكاد تكون سطحية أيضًا ؛ لأنّ الإنسان بسيط التفكير يستخلص بسهولة تامة أنّ من يجمع المال ويخزنـــه ، ثم يموت ويتركه ، لا يستفيد منه في حياته شيئًا ، وأنّ مآله لغيره ولمن لا يســـتحقونه ، وهـــذه القضية لا تطلع إلى الغيب ، ولا تحتاج إلى معجزات لكشفها والتعرف إليها ، فقد قال في ذلـــك الأضبط بن قريع السعدي :

قد يجمعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ من جمعَهْ[3]

---

[1] الزبير والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٥٢ .

* ابن عقبة بن أبي معيط ، متهم في دينه ، وقال الأبيات يرثي عمر بن عبد العزيز .

[2] المرزباني : معجم الشعراء ، ص٣٤٥ .

[3] أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة : الشعر والشعراء ، ت أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ـــ مصر ، ١٩٦٦م ، ج١ ، ص٢٩٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه الفكرة استغلها شعراء الزهد في العصر الإسلامي من أجل إقناع الناس بضرورة الزهد بالدنيا ، والإقلاع عن التهالك عليها ، والدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ؛ لأنّه من الممكن ألا ينفق المال من جمعه ، بل يتحول لغيره من القاعدين ، وفي ذلك يقول أبو الأسود الدؤلي :

قد يجمعُ المرءُ مالاً ثم يُحرمُهُ عمّا قليلٍ فيلقى الذلّ والخربا[1]

والمعنى ذاته نجده في قول محمد بن عبد الله الذي أشار فيه إلى أنّ الإنسان يسعى بكلّ ما لديه من طاقة ، ولا يترك مجالا يحصل فيه على المال إلا ويتّبعه ، ثمّ يصير لغيره من القاعدين ، يقول :

وتراهُ يجمعُ مالَهُ جمع الحريصِ الوارثونا
يسعى بأفضلِ سعيِهِ فيصيرُ ذاك لقاعدينا[2]

ويطابق هذا ما قاله سابق البربري فكرة ومعنى ، والتي أشار فيها إلى قضيةٍ كثر ترددها عند الشعراء ، وهي ذكر الورثة والقاعدين ممن لا يستحقون هذا الميراث ، فالدؤلي ومحمد بن عبد الله وبعدهم سابق البربري حاولوا إثارة مكامن نفس الإنسان المسلم ، والمساس بمشاعره وعواطفه ، فيذكرونه أنّ ماله الذي قضى عمره في جمعه لن يكون له ، ولن يجني منه نفعًا إذا لم ينفق بعضه في سبيل الله ، والبعض الآخر على نفسه ، ويظهر تأثر سابق بمن سبقه في هذه الفكرة في قوله :

وتجمعُ مالاً تأكلُ الدهرَ دائبًا كأنّكَ في الدنيا لغيرك خازنُ[3]

ومن المعاني التي تأثر بها شعراء صدر الإسلام بالشعراء الجاهليين ما أشار إليه الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من من ضعف الإنسان بعد قوته ونحوله بعد سمنته ، وذهاب بشاشته ، وزوال حلو العيش ، ولا يبقى بعده إلا مرّه[4] .

---

[1] أبو الأسود الدؤلي : ديوان أبي الأسود ، ص١٥٠ .
[2] الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص٢٩٨ .
[3] بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٣٢ .
[4] علي بن أبي طالب : ديوانه ، ص١٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويالمهر تأثر علي هنا في الأفكار والمعاني ببيتٍ سابقٍ قاله الشاعر الجاهلي ورقة بن نوفل في الموضوع ذاته ، يقول ورقة :

لا شيءَ مما ترى تبقى بشاشتُهُ يبقى الإلهُ ويودى المالُ والولدُ[1]

والدعوة إلى التقوى والعبادة والإحسان من خلال الشعر تمتد في جذورها إلى ما قبل الإسلام ، فقد دعا بعض الشعراء المتدينين في العصر الجاهلي إلى التقوى وعبادة الله ، وهي أفكار ومعانٍ كثر ترادها فيما بعد عند بزوغ فجر الإسلام ، وقد لا نستطيع القول أنّ الدعوة إلى التقوى في العصر الإسلامي هي نتيجة تأثير الدعوة الجاهلية ؛ لأنّ الإسلام يقوم في أساسه إلى الدعوة إلى التقوى والحمد والثناء على الله تعالى ، وهي إشارة إلى توافق بعض الأفكار والمعاني بين العصرين ، يقول الشاعر الجاهلي زيد بن عمرو بن نفيل في التقوى :

فتقوى اللهِ ربّكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبورا[2]

وقال الشاعر الإسلامي قيس الأنصاري في مثل ذلك :

فأوصيكم باللهِ والبرِّ والتّقى وأعراضكم والبرُّ باللهِ أوّلُ[3]

وكما تأثرت أشعار الزهد في هذه الحقبة بمثيلاتها من أشعار الزهد والتدين في العصر الجاهلي ، فقد أثرت بما جاء بعدها من أشعار في العصر العباسي ؛ فمن يتصفح أشعار الزهد في العصر العباسي ، يجد أنّ هناك قواسم مشتركة بين معانيها وألفاظها ومعاني وألفاظ شعر الزهد في العصر الأموي ، وهذا التأثير لا ينصرف إلى المعاني العامة للزهد التي يتناولها الشعراء الزهّاد في كل زمان ومكان ، فالدعوة إلى التقوى والتوكل على الله تعالى والزهد بالدنيا هي معانٍ يكثر ترادها عند شعراء الزهد في كل العصور ، والتأثر والتأثير إنّما ينصرف إلى المعاني الجديدة المتميزة ، والتي لا تشملها العمومية الواسعة .

---

(1) الأصفهاني : الأغاني ، ج٣ ، ص١٥ .

(2) المصدر السابق ، ج٣ ، ص١٢٥ .

(3) ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج : صفوة الصفوة ، ت محمود فاخوري ومحمد رواس ، قلعة جي ، دار المعرفة ــ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩م ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلو نظرنا إلى أبيات أبي العتاهية التالية ، لوجدناه يحقر الحياة الدنيا ، ويتساءل : لمـــن نبني البيوت ومصيرنا الزوال ؟! وكل حي سيناله الأجل ، وكل مولود يولد ليموت ، يقول :

لمن نبني ونحن إلى ترابٍ نصيرُ كما خُلقْنا من ترابِ[1]

ويقول :

ألا كلُّ مولودٍ فللموتِ يولدُ ولستُ أرى حيًّا لشيءٍ يُخلّدُ[2]

ويقول :

وكلُّ ما ولدْته الوالداتُ إلى موتٍ تؤديه ساعاتُ المواليدِ[3]

فأبو العتاهية هنا قد تأثر بأبيات سابق البربري في الفكرة واللفظ ، والتي يقول فيها :

وللموتِ تغدو الوالداتُ سخالها كما لخرابِ الدورِ تُبنى المساكنُ

فحتى متى تلهو بمنـــزلِ باطـــلٍ كأنـــّك فيه ثابتُ الأصلِ قاطنُ[4]

ولا يمكننا القول هنا بتوارد الخواطر ، فهذا عبد الله بن المبارك يتحدث مقارنًا بين الدنيا والآخرة ، ويشبه مقارنته هذه بالميزان ، فيقول أنّه حاول الموازنة بينهما فما اتّزنتا ، أي أنّه لم يجد مجالا للمقارنة بين الحياة الدنيا التي لا تساوي شيئًا قياسًا إلى الآخرة ، وهـــذه الفكـــرة ليست وليدة عقل ابن المبارك ، بل سبقه غليها شاعر أموي ، وهو ابو بلال مرداس بن أمية ، فلو نظرنا إلى بيتيهما التاليين ، فإننا لا نحتاج إلى كثير من التأمل والتدقيق لندرك مدى تـــأثر ابن المبارك بأبي بلال ، يقول ابن المبارك :

إنّي وزنْتُ الذي يبقى ليعدلَهُ ما ليس يبقى فلا واللهِ ما اتّزنا[5]

ويقول أبو بلال :

إني وزنْتُ الذي يبقى بعاجلةٍ تفنى وشيكًا فلا واللهِ ما اتّزنا[6]

---

(1) شكري فيصل : أبو العتاهية ـــ أشعاره وأخباره ، دار الملاح للطباعة والنشر ، دط ، دت ، ص٣٣ .

(2) المصدر السابق ، ص١٠٩ .

(3) المصدر السابق ، ص١٢٣ .

(4) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٢٤ .

(5) البغدادي الخطيب أبو بكر أحمد بن علي : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ـــ بيروت ، دت ، ج١٠ ، ص١٦٦ .

(6) نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن قواعد الزهد العامة ، عدم الاعتناء الزائد بالمال ، بل الزهد فيه والتقليل من شأنه في الحياة الدنيا ، لأنّ المال إذا لم يُنفق لما يرضي الله تعالى ، ويتفق مع الدين الحنيف ، فإنه يكون مفسدة للمرء ، ولا يخلّف له إلا الشر والتعاسة ، وهذه النظرة للمال ومكتنزه تناولها الزهاد بكثرة ، وعبروا عن ذلك بأن المال يخلف الكمد والغم والانشغال به عما سواه ، وهو المال الذي تأثر الشعراء بالحديث عنه وأثروا ببعضهم البعض في مجال الخوض فيه ، فهذا الحسين بن علي يقول :

كلما زيد صاحبُ المالِ مالاً ... زيد في همّهِ وفي الاشتغالِ[1]

وهو المعنى الذي تناوله أبو نواس في قوله :

من كان جمعُ المالِ همّتَهُ ... لم يخلُ من غمٍّ ومن كمدِ[2]

وقد يتأثر الشاعر بصورة معينة يسبقه إليها شاعر آخر ليعبر من خلالها عن عمق الفكرة التي يتناولها ، فالشعراء الزهّاد يتفقون على أنّ الدنيا غرور ، وأنّ الإنسان فيها غير مخلد ، وأن مقامه فيها قصير ، وهي دار ممر إلى الآخرة ، لذلك لا يعد تناول الفكرة نفسها عند الشعراء تأثراً ؛ لأنّها قاعدة أساسية من قواعد الزهد ، لكن تصوير الدنيا بالسراب مثلاً ، وتكرار هذه الصورة عند أكثر من شاعر ، فإن ذلك يعد ضرباً من التأثر ، وهذا يتضح من تصوير الإمام الشافعي ـــ رضي الله عنه ـــ بأنّ الدنيا غرور كالسراب الذي يظهر في الصحراء ويخدع الناظرين ، وهو ما نعتقد أنه تأثر به ببيت سابق البربري الذي سبقه فيه ، يقول الشافعي :

ومن يذق الدنيا فإني طعمتها ... وسيق إلينا عذبُها وعذابُها

فلم أرها إلا غروراً وباطلاً ... كما لاح في ظهرِ الفلاةِ سرابُها[3]

ويقول سابق البربري :

كمن غرّهُ لمعُ السرابِ بقيعةٍ ... فقصّرَ عن وردٍ تجيشُ مناهلُهْ[4]

---

(1) الزهر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٢٨ .

(2) أبو نواس الحسن بن هانئ : ديوان أبي نواس ، ت علي فاعور ، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٤م ، ص١٩٣ .

(3) الشافعي محمد بن إدريس : ديوان الإمام الشافعي ، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ، ط٥ ، ١٩٩٥م ، ص١٣ .

(4) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الصور التي ظهرت أيضاً في هذا المجال تصوير الدنيا بأنها دار يدخر بها الإنسان لآخرته ، فتصوير الأعمال الصالحة في الدنيا بالادّخار ، هي صورة كثر تناولها لدى الشعراء في مختلف العصور ، فقد تناولها أبو العتاهية مثلاً ، وهي ليست وليدة أفكاره ، لأنه سبق إليها من شعراء العصر الأموي ، أمثال الحطيئة الذي اعتبر تقوى الله ذخراً يدّخره الإنسان من دنياه لآخرته ، يقول :

وتقوى اللهِ خيرُ الزادِ ذخراً وعندَ اللهِ للأتقى مزيدُ[1]

وقد تأثر به أبو العتاهية عندما قال :

فعليك بالتقوى وذخيرة ظاعنٍ إن التقيةَ أفضلُ الإذخارِ[2]

ومن الملاحظ أننا لا نستطيع اعتبار القواعد العامة ، أو الأسس الأولى للزهد ، والتي تكررت عند الشعراء في مختلف عصورهم ، من قبيل التأثر ، ولا نعتبر في ذلك إلا ما تكرر من رسم صورة أو تشبيه ، أو تأثر مباشرة في التعبير عن فكرة معينة بالمعنى ، وأغلب اللفظ أو بعضه ، و لم يكن ذلك من قبيل الصدفة أو توارد الخواطر ، بل بتأثير السابق على اللاحق ، وقد يكون من المعاصرين من الشعراء .

---

[1] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة في عصر النبوة والخلفاء الراشدين ، ص١٨٠ .

[2] المعري أبو العلاء أحمد بن الحسين : اللزوميات ، مكتبة الهلال للطباعة والنشر ـ بيروت ، ١٣٤٢هـ ، ج١ ، ص٤٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معاني القرآن الكريم في شعر الزهد :

يجد من يتتبع الشعر الإسلامي ظلالاً كبيرة لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه ، ويجد المفردات الإسلامية الجديدة كثيرة الاستعمال والتداول على ألسنة الشعراء ، فلفظ الجلالة يتردد في شعر صدر الإسلام مقترناً ببعض الألفاظ الأخرى مثل الحمد لله وبإذن الله وجزى الله ، وتذكر الألفاظ التي تتصل بالنبوة كالرسول والنذير والبشير ، كما تذكر ألفاظ العقيدة الإسلامية كالإيمان والهدى والهداية ، وما شابه ذلك .

ولعلّه من الطبيعي أن يكون للقرآن الكريم بألفاظه ومعانيه حضور بارز في شعر الزهد في هذه الفترة ؛ لأنّ القرآن الكريم والسنة النبوية الملهمان الأولان لشاعر الزهد في العصر الإسلامي وما بعده من عصور ، وهما المصدران الرئيسان، بما يدعوان إليه من عبادة وتقوى وبغض للحياة الدنيا ، للقيم الروحية والمثل الخلقية الرفيعة التي دعا إليها شاعر الزهد .

ولا شكّ أنّ إعجاب الناس بالقرآن ، وانبهارهم به ، جعل وقع ألفاظه ومعانيه في قلوبهم كبيرًا ، فعكفوا على حفظه وتدارسه ، وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود : " كنّا نحفظ عشر آيات لا نجاوزهنّ حتى نعلم ما هنّ "[1] .

ومن يتصفح أشعار الزهد يجدها تدور في موضوعاتها في فلك تحقير الدنيا وذمها ، ودعوة الناس إلى تقوى الله تعالى ، والتوكل عليه ، والحديث عن الجنة والنار والحساب ويوم الحشر ، وهي الموضوعات التي تناولها القرآن الكريم بشكل واضح .

وقد حذر القرآن الكريم من التمسك بالحياة الدنيا بحد ذاتها في كثير من سوره وآياته ، ورغّب الناس بالجنة في مقابل ذلك ، ودعاهم إلى سلوك الطريق القويم المؤدي إليها ، ألا وهو العمل الصالح ، يقول تعالى : { إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا }[2] ، وحذّرهم من النار ، وخوّفهم منها ، وبيّن لهم الطريق التي تؤدي إليها ، وتشمل كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى ، يقول جلّ وعلا : { وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ }[3] .

---

[1] ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٦ ، ص١١٩ .

[2] سورة النبأ ، الآية ٣١ ــ ٣٤ .

[3] سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن قبيل تأثر الشعراء بالقرآن الكريم قول سابق البربري :

ومن جهولٍ مكثرٍ مالَهُ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ[(١)]

وهذا المعنى مأخوذ لفظًا من قوله تعالى : { ذلِكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ }[(٢)] .

وفي الدعوة إلى التوكل على الله تعالى ، وتسليم الأمور إليه في كل زمان ومكـــان ، نجد شعراء الزهد قد فهموا الآيات القرآنية الدالة على ذلك والداعية إليه ، وقد استوعبوها وأحسنوا استيعابها ، فأعادوا صياغتها شعراً ، مستلهمين الفكرة الأساسية والمعاني العامـــة للتوكل من الآيات القرآنية . فلو نظرنا إلى قول أبي الأسود الدؤلي :

إذا كنتَ معنيًّا بأمرٍ تريده فما للقضاءِ والتوكّلِ من مثـــلِ

توكّلْ وحمّلْ أمركَ اللهَ إنما تُراد به آتيك واقنع بذي الفضلِ[(٣)]

وقوله :

فليعطينّك ما أراد بقـــدرةٍ فهو اللّطيفُ لما أراد فعالا

إن العبادَ وشأنَهم وأمورهم بيدِ الإله يقلّبُ الأحوالا[(٤)]

لوجدنا أنّ مضمون الأبيات السابقة ، ينسجم مع ما يدعو إليه القرآن الكريم مـــن التوكل على الله وعدم طلب الرزق إلا منه ، وفي ذلك يقول تعالى : { وَتوكّل عَلى الحيِّ الّذي لَا يَمُوتُ }[(٥)] ، ويقول : { وَعَلَى اللهِ فليَتَوَكّل المؤمِنُونَ }[(٦)] ، ويقول جل وعلا في الرزق : { وَفِي السَّماءِ رِزقُكم وَمَا تُوعَدونَ }[(٧)] .

ولا يعني أخذ الشعراء لمعاني القرآن الكريم في أشعارهم ضرورة أخذ ألفاظها ذاتها ، بل تشكل الفكرة العامة أو المعنى العام ، الهدف الأساسي الذي يجنده الشاعر فيما يقول من أشعار ، فالقرآن الكريم جعل لهم صنفًا خاصًا من الثقافة الدينية ، وعلمـــــهم مـــا لم يكونوا يعلمون ، فاستوعبوا ذلك وصاغوه في قوالب شعرية جديدة .

---

(١) بدر احمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٢٠ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٩٦ .

(٣) الزبر والأطرم : شعر الدعوة للإسلامية ، ص٣٣١ .

(٤) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

(٥) سورة الفرقان الآية ٥٨ .

(٦) سورة التغابن ، الآية ١٣ .

(٧) سورة الذاريات ، الآية ٢٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد حمل قوله تعالى : { وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ }[1] ، وقوله : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }[2] وقوله : { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ } وقوله : { وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا }[3] ، مضموناً مهماً وركناً أساسياً في حياة المسلم ، ألا وهو قضية الرزق وارتباطها بالله تعالى ،فالإنسان لن يصيب إلا ما كتب الله له ، فقد ينال المال الوفير من لا يعمل ، أو من كان خافضاً كسولاً ، وقد يحرم الذي لا ينقطع في سعيه خلف رزقه ، فلو نظرنا إلى معاني الآيات السابقة لوجدناها تحمل المضمون نفسه ، لكنّها جعلت في قوالب جديدة من حيث اللفظ والوزن والموسيقى ، معنًى ومضمونًا ، وللتدليل على ذلك نسوق الأمثلة التالية ، يقول الحكم بن عبدل :

قد يُرزقُ الخافضُ المقيمُ وما ... شدّ بعنس رحلاً ولا قتبا

ويُحرم الرزقَ ذو المطية ... والرحل ومن لا يزال مغتربا[4]

ويقول عروة بن أذينة :

لقد عملت وما الإسراف من خلقي ... أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى له فيغنيني تطلُّبُهُ ... ولو قعدت أتاني لا يعنيني

وأنّ حظ امرئٍ غيري سيبلغه ... لا بدّ لا بدّ أن يجتازه دوني

ضيمي كريم ونفسي لا تحدثني ... أن الإله بلا رزق يخليني[5]

فلو أمعنّا النظر في هذه الأبيات وفي قوله تعالى : { اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ } ، لوجدنا أنّ الشاعر يستخدم المعنى ذاته حين يقول : (قَدْ يرزق الخافض المقيم) و (ويحرم الرزق ذو المطية) ، وقول الله تعالى : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } استخدم الشاعر معناه نفسه في قوله :

وإن حظّ امرئ غيري سيبلغه ... لا بدّ لا بد أن يجتازه دوني

وقول ثابت قطنة في قضاء الله وقدره الذي لا يرده راد :

---

[1] سورة القصص ، الآية ٨٢ .

[2] سورة الزخرف ، الآية ٣٢ .

[3] سورة هود ، الآية ٦ .

[4] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٦ ، ص٢١٥ .

[5] المصدر السابق ، ج١٨ ، ص٣٢٤ ــ ٣٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما قضى اللهُ من أمرٍ فليس له ردٌّ وما يقضِ من شيءٍ يكن رشدا[1]

مأخوذ معنًى من قوله تعالى : { وإذا أرادَ اللهُ بِقومٍ سوءًا فَلا مَردَّ لهُ وَمَا لهُمْ من دونــهِ مــنْ والٍ }[2] وقوله تعالى : { ولاَ يُردّ بأسهُ عَن القوم المجرمين }[3] .

أمّا قضية الإيمان بزوال الدنيا ، وأنّ العيش فيها ما هو إلا مرحلة قصيرة ، وأنّ الحيـــاة الآخرة خير وأبقى ، فهو مأخوذ في معناه من دلالات العديد من الآيات القرآنيـــة ، فقـــول سابق البربري :

مالي أرى الناسَ والدنـــيا موليةً وكلُّ حبـــلٍ عليها سوف ينبترُ

لا يشعرون بما في دينهم نقصوا جهلاً وإن نقصت دنياهم شعروا

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلفٍ في الخد منـــي إلى لذاتها صعـــرُ

فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسرُّ به إلا سيتبع يومًا صفـــوة كـــدرُ[4]

مأخوذ من قوله تعالى : { زُيّنَ لِلّذينَ كَفَروُا الحياةُ الدُّنيَا وَيَسخَرُونَ منَ الّذينَ آمَنوُا والذّيـــنَ اتّقوَا فَوقَهمْ يَومَ القِيامَة }[5] ، وقوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ الحيَاةَ الدُّنيَا وزِينَتهَا نُوفّ إلَيهم أعمَالهمْ فِيهَا وهم فيها لاَ يــبْخسُونَ * أولَئكَ الذّينَ لَيسَ لهُمْ في الآخِرةِ إلاّ النّار وَحَبطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطلٌ مَا كَانوُا يعْملونَ }[6] ، وقوله تعالى : { وَما هذهِ الحيَاةُ الدُّنيَا إلاّ لهوٌ ولَعِبٌ وإنّ الدّارَ الآخِرَةَ لهِيَ الحيَوَانُ لَو كَانوُا يَعلَمُونَ }[7] ، وقوله تعالى : { فَأمّا مَن طَغَى * وَآثرَ الحيَاةَ الدُّنيَا * فَإنّ الجحَيم هيَ المأوى }[8] .

---

(1) الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص٢٧ .

(2) سورة الرعد ، الآية ١١ .

(3) سورة الأنعام ، ص١٤٧ .

(4) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١٠١ .

(5) سورة البقرة ، الآية ٢١٢ .

(6) سورة هود ، الآية ١٥ ـــ ١٦ .

(7) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ .

(8) سورة النازعات ، الآيات ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو نظرْنا إلى قوله تعالى : { وَيَومَ نُسيِّرُ الجبَالَ وَتَرى الأَرضَ بَارِزَةً وحَشَرنَاهمُ فَلَم نُغَادِر مِنهُم أَحَداً }[١] وقوله تعالى : { يوَم تَمورُ السَّمَاءُ مَوراً * وَتَسِيرُ الجِبَالُ سَيراً }[٢] لوجدنا سابق البربري قد اخذ هذه المعاني كلها وصاغها صياغة مختلفة بقوالب جديدة في قوله :

إذا الأرضُ خفّت بعد ثقلِ جبالها وخلّى سبيلَ البحرِ يا نفسُ ساحلُه[٣]

ويستلهم الحصين بن الحمام أفكاره ومعانيه من آيات القرآن الكريم ، فلم يكن يعلم شيئًا عن الساعة والقيامة والحساب ، فهي من الأمور الغيبية التي لم يصلنا عنها شيئًا الا عن طريق الكتاب والسنة ، فاستلهم الشاعر ذلك ، وصاغه صياغة جديدة ، مستعيذًا من يوم الحشر الذي تُعرض الأعمال فيه على صاحبها ، ويصور الأرض يوم ذلك ، فيقول :

أعوذُ بربـي من المخزيا تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها

وخفّ الموازين بالكافرين وزلزلـتْ الأرضُ زلزالها[٤]

فالبيت الثاني نصًا وروحًا مأخوذ من قوله تعالى : { إذا زُلزِلتْ الأرْضُ زِلزَالَهَا }

ومثل هذا التأثر بمعاني القرآن نجده عند ليلى الأخيلية في التوكل على الله ،وعدم الجزم في الأمور وفي فعل الأشياء إلا بعد التيقن أنّ ذلك لا يتم إلا بمشيئته ، سواءً أكان ذلك بالنجاح أو الفشل ، بناءً على قوله تعالى : { وَلاَ تَقُولَنّ لشيءٍ إنّي فَاعلٌ ذَلِكَ غَداً* إلّا أَن يَشَاءَ اللهُ واذكُر رَّبكَ إذَا نَسِيتَ وَقُل عَسَى أَن يَهدِيَنِ رَبِّي لأقرَبَ مِن هَذَا رَشَداً }[٥] .

وتقول ليلى الأخيلية في هذا المعنى :

ولا تقولنْ لشيءٍ سوف أفعلُهُ قد قدّر اللهُ ما كلُّ امرئٍ لاقِ[٦]

وأكثر الشعراء الزهّاد من الحديث عن يوم الحشر ، يوم تعرض النفس على أعمالها، وقد فصلوا مجريات ذلك اليوم ، فنقلوا عن القرآن الكريم أفكاراً ومعاني لم يكن بالإمكان

---

[١] سورة الكهف ، الآية ٤٧ .
[٢] سورة الطور ، الآيات ٩ ، ١٠ .
[٣] بدر احمد ضيف : شعر سابق البربري ، ص١١٧ .
[٤] الأصفهاني : الأغاني ، ج١٤ ، ص١٥ .
[٥] سورة الكهف ، الآية ٢٣ .
[٦] عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، ص٥٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحصول عليها إلا من الكتاب والسنة ، فوصفوا الغيبيات وتحدثوا عنها وعن النفس البشرية التي ستعرض على الله سبحانه وتعالى ، يوم لا يغني عنها مال ولا بنون ، وعرضوا للموت الذي لا ينفع في تحاشيه جاه أو غنى . هذه المعاني وغيرها صاغها شاعر الزهد متأثرًا بالقرآن الكريم ، مشكلاً من أفكاره وآياته صورًا جديدة تنسجم بإيقاع شعري متميز ، ووزن وقافية يلائمان الموضوع المطروق ، فمن يتدبر قول أحد الشعراء فيمن يحرصون على جمع المال واكتنازه :

عجبْتُ ما عجبْتُ للجامعِ المالَ ... يباهي به ويرتفدُهْ

يوم لا ينفع المخولُ ذا الثر ... وة خلانُهُ ولا ولدُهْ[1]

يجد ارتدادًا سريعًا في ذاكرته إلى شيء مماثل سمعه من آيات القرآن الكريم ، فيتذكر قوله تعالى : {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ }[2] وقوله تعالى : { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ ولاَ بنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }[3] .

ومن المعاني التي أخذت من القرآن الكريم تصوير هول يوم الحشر وما يلاقيه الكافر من حساب وعقاب وما يتعرض له من تغيرات في مثل قوله تعالى : { وَيَوم نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنهُم أَحَداً }[4] ، ففي ذاك اليوم تأتي كل نفس تحمل أعمالها وأوزارها فلا ينفعها إذ ذاك مال ولا بنون ، وفي ذلك يقول تعالى : { لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ }[5] ، ويصور سبحانه كذلك طعام أهل النار وشرابهم فيقول : { مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ }[6] ، ويقول كذلك في هذا الموقف العظيم : { يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ }[7] ، وقد بهر المسلمون هذا الكشف عن الأمور الغيبية من خلال هذه الآيات ، فأذهلهم موقف الحشر والحساب ، وتأثروا بآياته التي وردت في القرآن الكريم ، واستغل شعراء الزهد هذا التأثر والفزع من يوم الحشر ،

---

[1] نايف معروف : ديوان الخوارج ، ص٣٤ .

[2] سورة الأعراف ، الآية ٣٤ .

[3] سورة الشعراء ، الآية ٨٩ .

[4] سورة الكهف ، الآية ٤٧ .

[5] سورة النحل ، الآية ٢٥ .

[6] سورة إبراهيم ، الآية ١٦ .

[7] سورة الطارق ، الآية ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والآيات الكريمة التي تدعو إلى التقوى كثيرة جداً ، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن فلا نجد فيها دعوة إلى التقوى ، وقد جسد الشعراء هذه الدعوة في العديد من أبياتهم الشعرية والتي نذكر فيها قول أعشى همدان :

عليك بتقوى اللهِ في كلِّ مرةٍ تجد غبّها يوم الحسابِ المطوّلِ[1]

وقول عبد الملك بن مروان :

عليك بتقوى الله في الأمرِ كلِّهِ وكن يا عُبيدَ اللهِ تخشى وتضرعُ[2]

ومن قبيل الدعوة إلى التقوى ، ونفعها يوم الحساب ، إن واظب المرءُ عليها ، ما قاله الوليد بن يزيد :

من يتقِّ اللهَ يجد غبّ التقى يوم الحساب صائراً إلى الهدى[3]

وقوله :

إن التقى أفضلُ شيءٍ في العملْ أرى جماع البّر فيه قد دخلْ[4]

وقد تأثر في ذلك بقوله تعالى : { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ } .

وبعد ، فهذه الشواهد التي عرضناها في الصفحات السابقة ، ليس كل ما أثر من معاني القرآن الكريم في شعر الزهد ، فالأمثلة كثيرة جداً ، ولا عجب في ذلك ؛ لأنّ القرآن الكريم يدعو إلى العمل الصالح بعبادة الله وتقواه ، والإكثار من النوافل ، والتوكل على الله ، والإيمان بالقضاء القدر ، والعمل من أجل الآخرة دار المستقر ، والشعراء قد جنّدوا معاني القرآن من التقشف واحتقار الدنيا والتوكل على الله والعمل ليوم الحشر ، والحديث عن الغيب والحشر والحساب ، لخدمة أشعارهم الزهديّة ، لأنّ اقتباس أفكار أشعارهم من القرآن يؤثر في النفوس ويفزع القلوب ، بالإضافة أن القرآن الكريم يتمتع بأسلوب بلاغي عظيم أذهل الناس وأعجزهم ، لذلك أعجبهم وتأثروا بمعانيه فصاغوها صياغة جديدة .

---

(1) البحتري : الحماسة ، ص١٦٠ .

(2) الزبر والأطرم : شعر الدعوة الإسلامية ، ص٣٣٣ ، وينظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٩ ، ص١١٢ .

(3) الأصفهاني : الأغاني ، ج٧ ، ص٥٧ .

(4) الأصفهاني : الأغاني ، ج٧ ، ص٥٧ ــ ٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلاصة

هذا البحث بعنوان "شعر الزهد في العصر الأموي" وقد تحدثت فيه ، بشكل موجز عن شعر الزهد في العصرين الجاهلي وصدر الاسلام ، وأهم أعلامه الإسلاميين ، ثم تناولت دوافع الزهد في العصر الأموي ، وأهم المؤثرات التي أدت إلى نشأته وتطوره ، ومن ثم تناولت الموضوعات التي تطرق إليها شاعر الزهد في زهده ، وأهم شعراء الزهد ومنهجهم الزهدي في هذا العصر ، كما تحدثت عن لغة شعر الزهد ، وأبرزت مدى تأثر شاعر الزهد في العصر الأموي بشعر الزهد في العصرين الجاهلي وصدر الإسلام ، ومدى تأثيره فيما بعده من أشعار العصر العباسي ، وختمت البحث بالحديث عن معاني القرآن الكريم في شعر الزهد في هذا العصر .

وبعد هذا الجهد المتواضع أستطيع أن أخلص النتائج التالية :

- إن جذور شعر الزهد قديمة ، لا ترتبط بالدين الإسلامي فحسب ، بل لها جذورها الضاربة في الجاهلية ، وأن الزهد في عصر صدر الإسلام يستمد وجوده في معظم الأحيان من أصول إسلامية بحته متأثراً بالقرآن الكريم والسنة النبوية .
- إن شعر الزهد في العصر الأموي تأثر – عدا عن العامل الديني المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة – بعوامل أخرى اقتصادية وسياسية وخارجية ، بفعل اختلاط العرب بالأمم المغلوبة التي كانت تدين بأديان أخرى ، لهم فيها فلسفتهم الزهدية الخاصة .
- ان موضوعات شعر الزهد في العصر الأموي تركزت على الدعوة إلى تحقير الدنيا وذمها ، والدعوة إلى التوكل على الله ، والدعوة إلى التقوى والعباده ، والاستشهاد بالأمم السابقة والقبور الدارسة ، وقد كان سابق البربري وأبو الأسود الدؤلي أكثر شعراء هذا العصر قولاً في الزهد إذ يمثلان شعراء الزهد خير تمثيل .
- لقد تميزت لغة شعر الزهد في هذه الحقبة بالسهولة والبساطة والبعد عن الإفحاش والإغراب ، كما تميزت بأنها خطابية وعظية تؤثر في عقول الناس ونفوسهم ، وقد تميز الزهد في هذا العصر كذلك بأنه حلقة تربط بين السابق واللاحق ، فقد تبين تأثير الشعراء الأمويين بشعر الزهد عن الجاهليين وعصر صدر الإسلام كما أثروا في شعر العصور اللاحقة .
- لقد كان لآيات القرآن الكريم بألفاظها ومعانيها حضور بارز في أشعار الزهد ، إذ ترددت معاني القرآن الكريم على ألسنة شعراء الزهد ، لذلك نستطيع القول أن شعر الزهد في هذه الحقبة في معظمه كان أصداء لمجيء الإسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

This thesis is entitled " The asceticism Poetry in the Umayyad Period ". I discussed in this thesis briefly the asceticism poetry in the Pre-Islamic and Islamic periods, and the most important Islamic ascetic poets. Then I talked about the motivations of asceticism in the Umayyad period and the factors that led to its origin and development. Then I discussed the topics which the poet talked about in his asceticism and the most prominent poets and their method of asceticism in this period. I also talked about the language of asceticism poetry and shed light on the extent to which the ascetic poet in the Umayyad period was influenced by the asceticism poetry of the Pre-Islamic and Islamic periods, and the extent of his influence of the later Abbasid period. I concluded the thesis by talking about the meanings of the Holy Quran in the asceticism poetry in this period.

At the end of this thesis, I arrived at the following findings:

- The roots of asceticism poetry are ancient. They are not only related to Islam, but they are also deeply rooted in the Pre-Islamic period. In most cases, asceticism in the Islamic period is related to pure Islamic origins and influenced by the Holy Quran and the Prophet sayings.

- Apart from the religious factor of the Holy Quran and the Prophet sayings, asceticism poetry in the Umayyad period was influenced by other economic and political foreign factors as a result of Arab mingling with the defeated nations that had different religions and special ascetic philosophy.

- The topics of asceticism poetry in the Umayyad period concentrated on the appeal to disregard this world, to depend on God, to worship, to take a lesson from the previous nations and to consider the damaged tombs. The most prominent poets of this period were Sabeq Al-Barbary and Abu-al-Aswad Al-Doualy who represent this period very well.

- The language of asceticism poetry in this period was distinguished by simplicity and avoiding queer, strange language. It was also characterized by its breaching to affect the minds and souls of people. Asceticism in this period was also characterized as a link relating the former and the later. The Umayyad poets were influenced by the ascetic poetry of the Pre-Islamic and Islamic poets and at the same time they influenced the poets of the later periods.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- The verses of the Holy Quran in their meanings and expressions are clearly present in asceticism poetry. The meanings of the Holy Quran were repeated mentioned by the ascetic poets so often that we can conclude that most of the ascetic poetry in the Umayyad period was a reflection of Islam.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتـــمة

لقد بدأت دراستي لشعر الزهد في العصر الأموي بتعريف الزهد لغة واصطلاحـاً ، ثم قمت بدراسة سريعة لشعر الزهد في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، ثم طوفت علـــى أشعار الزهد في العصر الأموي ، وجمعتها من . بطون أمهات الكتب ودواوين الشـــعراء ، وكانت نهاية البحث بدراسة فنية لهذا الفن الشعري ، وبعد هذا الجهد المتواضع أســـتطيع أن أخلص النتائج التالية :

١ ـــ إنّ جذور شعر الزهد قديمة ، لا ترتبط بالدين الإسلامي فحسب، بل لهـــا جذورهـــا الضاربة في الجاهلية، وخير ما يمثل ذلك الشعراء الحنفاء ، والشعراء المسيحيون وغيرهم ممـــن تناثرت أبيات الزهد في دواوينهم .

٢ ـــ إنّ الزهد في عصر صدر الإسلام يستمد وجوده في معظم الأحيان من أصول إســـلامية بحتة متأثراً بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، ولعل ألفاظ القرآن الكـــريم ومعانيـــه المتنـــاثرة في أشعارهم تثبت مصداقية ذلك .

٣ ـــ إنّ شعر الزهد في العصر الأموي تأثر ـــ عدا عن العامل الديني المتمثل بالقرآن الكـــريم والسنة النبوية الشريفة ـــ بعوامل أخرى اقتصادية وسياسية وخارجية ، بفعل اختلاط العـــرب بالأمم المغلوبة التي كانت تدين بأديان أخرى ، لهم فيهما فلسفتهم الزهدية الخاصة .

٤ ـــ إنّ موضوعات شعر الزهد في العصر الأموي تركزت على الدعوة إلى تحقير الدنيا وذمها ، والدعوة إلى التوكل على الله ، والدعوة إلى التقوى والعبادة ، والاستشهاد بالأمم الســـابقة والقبور الدارسة .

٥ ـــ إنّ سابق البربري وأبا الأسود الدؤلي أكثر شعراء هذا العصر قولا في الزهد إذ يمثـــلان شعراء الزهد خير تمثيل .

٦ ـــ لقد تميزت لغة شعر الزهد في هذه الحقبة بالسهولة والبســـاطة والبعـــد عـــن الإفحـــاش والإغراب ، كما تميزت بأنها خطابية وعظيه تؤثر في عقول الناس ونفوسهم ، وهي بذلـــك تناسب الغرض الذي نظمت من أجله .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧ ــ لقد شكّل شعر الزهد في العصر الأموي حلقة تربط بين السابق واللاحق ، فقد تبين تأثير الشعراء الأمويين بشعر الزهد عن الجاهلين وعصر صدر الإسلام كما أثروا في شعر العصور اللاحقة ، وذلك واضح في تأثر أبي العتاهية وأبي نواس وأبي العلاء المعري .

٨ــ لقد كان لآيات القرآن الكريم بألفاظها ومعانيها حضور بارز في أشعار الزهد ، إذ ترددت معاني القرآن الكريم على ألسنة شعراء الزهد ، لذلك نستطيع القول أن شعر الزهد في هذه الحقبة في معظمه كان أصداءً لمجيء الإسلام .

والله من وراء القصد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم

٢) إبراهيم شحادة الخواجة : شعر الصراع السياسي في القرن الثاني الهجري ، دار فاطمة للنشر ـــ الكويت ، ١٩٨٤ .

٣) إحسان عباس : ديوان شعر الخوارج ، دار الشروق ـــ بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٢.

: شرح ديوان لبيد ، مطبعة حكومة الكويت ـــ الكويت ، ١٩٦٢ .

٤) أحمد جمال العمري : الشعراء الأحناف ، دار المعارف ـــ مصر ، ط١ ، ١٩٨١م .

٥) أحمد خلاق عروات : الحياة والموت في الشعر العربي ، رسالة دكتوراة ، معهد اللغة والأدب العربي ، ١٩٩٣ .

٦) أحمد طلعت : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، دار القاموس الحديث ـــ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٠.

٧) أحمد بن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد ، ت محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة ـــ القاهرة ، ط١ ، ١٩٤٠ .

٨) أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي : ديوان أبي الأسود الدؤلي ، ت محمد حسن آل ياسين ، دار الكتاب الجديد ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٧٤ .

٩) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، دار المعرفة الجامعية ـــ الاسكندرية ، د.ت.

١٠) بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ـــ بيروت ، ١٩٧٧م .

١١) أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي بيروت، دت

١٢) أبو بكر الصديق عبد الرحمن بن أبي قحافة : ديوان أبي بكر الصديق ، ت راجي الأسمر ، دار صادر ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ .

١٣) أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي : طبقات النحويين واللغويين ، ت محمد الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـــ مصر ، دت .

١٤) جابر قمحيّة : أدب الخلفاء الراشدين ، دار الكتب الإسلامية ـــ القاهرة ، د.ت .

١٥) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ـــ القاهرة ، ط٢ ، ١٩٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦) بدر أحمد ضيف : شعر سابق البربري ، دار المعرفة الجامعية ــ الاسكندرية ، د.ت.
١٧) البروي ، وليم بن الورد : مجموع أشعار العرب ــ رؤبة بن العجاج ، دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ، ط١ ، ١٩٧٩ .
١٨) بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ــ بيروت ، ١٩٧٧م .
١٩) البغدادي الخطيب أبو بكر أحمد بن علي : تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، دت .
٢٠) البغدادي عبد القادر بن عمر : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، المطبعة الأميرية ــ بيروت ، ١٣٢٩ هـ .
٢١) البهيثي نور الدين علي بن بكر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، مؤسسة المعارف ــ بيروت ، ١٩٨٦ .
٢٢) جابر قمحيّة : أدب الخلفاء الراشدين ، دار الكتب الإسلامية ــ القاهرة ، د.ت .
٢٣) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : البخلاء ، ت طه الحاجري ، دار المعارف ــ مصر ، ١٩٥٨ .
٢٤) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : البيان والتبين ، المطبعة الرحمانية ــ مصر ، ط٢ ، ١٩٣٢ .
٢٥) الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، ت عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، ط٣ ، ١٩٦٩ .
٢٦) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال ــ القاهرة ، ط٢ ، ١٩٣٧ .
٢٧) الجعدي النابغة قيس بن عبد الله بن عدس بن جعدة : شعر النابغة الجعدي ، منشورات المكتب الإسلامي ــ دمشق ، ط١ ، ١٩٦٤ .
٢٨) ابن الجوزي جمال الدين أبو الفرج : صفوة الصفوة ، ت محمود فاخوري ومحمد روّاس ، قلعة جي ، دار المعرفة ــ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .
٢٩) ابن الجوزي جمال الدين أبو عبد الرحمن : سيرة عمر بن عبد العزيز ، دار الكتب العلمية ــ بيروت ، ط١ ، ١٩٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤١) شكري فيصل : أبو العتاهية أشعاره وأخباره ، دار الملاح للطباعة والنشر ـــ دمشق ، د.ط ، د. ت .

٤٢) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ـــ العصر الإسلامي ، دار المعارف ـــ مصر ، ط٤ ، د. ت .

٤٢) شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ـــ مصر ، ط٢ ، ١٩٥٩ .

٤٤) الشيباني النابغة : ديوان نابغة بني شيبان ، ت عبد الله مخارق بن سليم ، دار الكتاب العربي ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٥ .

٤٥) الصديق أبو بكر عبد الرحمن بن أبي قحافة : ديوان أبي بكر الصديق ، ت راجي الأسمر ، دار صادر ـــ بيروت ، ط١ ، ١٩٩٧ .

٤٦) الضبي المفضل : المفضليات ، ت عبد السلام هارون ، مطبعة دار المعارف ـــ مصر ، ١٩٦٧ .

٤٧) ابن أبي طالب علي : ديوان الإمام علي . ت عبد العزيز الكرم ، دط ، دت .

٤٨) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك ، مطبعة الاستقامة ـــ القاهرة ، ١٩٣٩ .

٤٩) الطبري أبو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير القرآن ، ط١ ، المطبعة الأميرية ١٣٢٩هـ .

٥٠) عباس محمود العقاد : عبقرية الإمام علي ، ط٣ ، د.ت .

٥١) عبد الحكيم حسان : التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري ، مكتبة الأنجلو مصرية ـــ مصر ، ١٩٥٤ .

٥٢) عبد الله بن حامد : شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ، مطبوعات الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية ـــ الرياض ، ط١ ، ١٩٧١.

٥٢) ابن العبد طرفة : ديوان طرفة بن العبد ، ت فوزي عطوة ، دار صعب ـــ بيروت ، ١٩٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٤) عبد العزيز بن محمد الزير ومحمد بن عبد الله الأطرم : شعر الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ، ١٩٧٣ .
٥٥) ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن : تهذيب تاريخ دمشق الكبير ، دار المسيرة ـ بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٩ .
٥٦) العسقلاني ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ت علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة ، د.ت .
٥٧) عمر فرّوخ : التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٩٨١ .
٥٨) الغزالي أبو حامد محمد : إحياء علوم الدين ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ، د.ت
٥٩) الغزالي أبو حامد محمد : مكاشفة القلوب ، مطبعة محمد علي صبح ـ مصر ، د.ت .
٦٠) قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ مصر ، ١٩٧٢ .
٦١) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : الشعر والشعراء ، ت أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ـ مصر ، ١٩٦٦.
٦٢) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : المعارف ، ت ثروت عكاشة ، دار المعارف ـ مصر ، ط٤ ، دت .
٦٣) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : عيون الأخبار ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ، ١٩٢٥م .
٦٤) قمر الكيلاني : في التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره وأعلامه ، دار مجلة شعر ، المكتبة العصرية ـ بيروت ، ١٩٦٢ .
٦٥) كارلو نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ، دار المعارف ـ مصر ، ط٢ ، ١٩٧٠ .
٦٦) ابن كثير أبو الفداء الحافظ : البداية والنهاية ، دار الرشيد ـ حلب ، دت .
٦٧) مجاهد مصطفى بهجت : التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ بغداد ، ط١ ، ١٩٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦٨) محمد بن حسن الزير : الحياة والموت في الشعر الأموي ، دار مية للنشر والتوزيع ـــ القاهرة ط١ ، ١٩٨٩ .

٦٩) محمد شيخاني : التربية الروحية بين الصوفيين والسلفيين ، دار قتيبة ، ط٢ ١٩٩٥.

٧٠) محمد فؤاد عبد الباقي : سنن ابن ماجة ، دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت ، د.ت .

٧١) محمد عويس : الحكمة في الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، ١٩٧٩ .

٧٢) محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار المعارف ـــ مصر ، ١٩٦٣ .

٧٣) محمد هاشم عطية : الأدب العربي وتاريخه ـــ العصر الجاهلي ، المطبعة الأميرية ـــ بولاق ، ط١ ، د.ت .

٧٤) مجمع اللغة العربية ـــ مصر : المعجم الوسيط ، أخرجه إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار ، أشرف على طبعه عبد السلام هارون ، مطبعة مصر ـــ مصر ، ١٩٦٠م .

٧٥) المزرباني أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى : معجم الشعراء ، ت عبد الستار أحمد فرّاج ، دار إحياء الكتب العربية ـــ القاهرة ، ١٩٦٠ .

٧٦) ابن المعتز عبد الله : طبقات الشعراء ، ت عبد الستار أحمد فرّاج ، ط٤ ، دار المعارف ـــ مصر ، دت .

٧٧) المعري أبو العلاء أحمد بن الحسين : اللزوميات ، مكتبة الهلال للطباعة والنشر ـــ بيروت ، ١٣٤٢هـ .

٧٨) ابن منظور محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر ـــ بيروت ، ١٩٦٨م .

٧٩) المنوفي السيد محمود أبو الفيض : التصوف الإسلامي الخالص ، دارالنهضة ـــ مصر ١٩٦٩ .

٨٠) الموردي علي بن محمد : أدب الدنيا والدين ، ت مصطفى السقا ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـــ مصر ، ط٤ ، ١٩٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٨١) مي يوسف خليف : التيار الإسلامي في العقيدة الأموية ، دار الثقافة للنشر والتوزيـــع — الفجالة ، ١٩٩٣ .

٨٢) نايف معروف : ديوان الخوارج شعرهم وخطبهم ورسائلهم ، دار المسيرة ـــ بـــيروت ، ط١ ، ١٩٨٣ .

٨٣) نبال تيسير جمال : شعر الخلفاء في العصرين الراشدي والأموي ، ١٩٨٤ .

٨٤) أبو نواس الحسن بن هانئ : ديوان أبي نواس ، ت علي فاعور ، دار الكتـــب العلميـــة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٤ .

٨٥) نوري حمودي القيسي : شعراء أمويون ، مكتبة النهضـــة العربيـــة ـــ بـــيروت ، ط٢ ، ١٩٦٧ .

٨٦) النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهايـــة الأرب في فنـــون الأدب ، مطبعـــة كوستاتو ماس ـــ القاهرة ، د. ت .

٨٧) ابن هشام أبو محمد عبد الملك : سيرة النبي ، ت محمد محي الدين عبـــــد الحميـــد ، دار التحرير للطبع والنشر — القاهرة ، ١٣٨٣هـــ .

٨٨) يوليوس فلهوزن : الخوارج والشيعة ، ت عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصريـــة — مصر ، ١٩٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

الزهد لغة واصطلاحًا ..... صفحة ٥
الزهد في العصر الجاهلي ..... صفحة ٧
شعر الزهد في عصر صدر الإسلام ..... صفحة ٢٠
أشهر شعراء الزهد في عصر صدر الإسلام : ..... صفحة ٣٣
علي بن أبي طالب ..... صفحة ٣٣
النابغة الجعدي ..... صفحة ٣٨

الفصل الثاني

عوامل الزهد في العصر الأموي ..... صفحة ٤٥
العامل الديني ..... صفحة ٤٥
العامل السياسي ..... صفحة ٤٨
العامل الاجتماعي ..... صفحة ٥١
عامل خارجي ..... صفحة ٥٣
موضوعات شعر الزهد في العصر الأموي ..... صفحة ٥٩
أولاً : تحقير الدنيا ..... صفحة ٥٩
قصر الدنيا وسرعة زوالها ..... صفحة ٦٠
غرور الدنيا للناس ..... صفحة ٦٢
قضية ذم المال وتحقير جمعه واكتنازه ..... صفحة ٦٦
قضية الموت ..... صفحة ٧٠
قضية الوعظ ..... صفحة ٧٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيًا : التوكل ..... صفحة ٧٧
الدعوة صراحة إلى التوكل باستخدام اللفظ نفسه .... صفحة ٧٨
السعي في طلب الرزق ..... صفحة ٧٩
الإيمان بالقضاء والقدر ..... صفحة ٨١
ثالثًا : التذكير بالآخرة ..... صفحة ٨٢
رابعًا : الاتعاظ بالقبور والأقوام السابقة ..... صفحة ٨٨
القبور من المحسوسات ..... صفحة ٨٨
الاتعاظ بالأقوام السابقة ..... صفحة ٩٢
خامسًا : الدعوة للتقوى والعبادة ..... صفحة ٩٥
الحث على التقوى بتكرار لفظها الصريح ..... صفحة ٩٥
الصلاة وقراءة القرآن والتوبة إلى الله ..... صفحة ٩٨
أشهر شعراء الزهد في العصر الأموي ..... صفحة ١٠٢
سابق البربري ..... صفحة ١٠٢
منهجه في الزهد ..... صفحة ١٠٣
أبو الأسود الدؤلي ..... صفحة ١٠٩
منهجه في الزهد ..... صفحة ١١٠

الفصل الثالث

اللغة في شعر الزهد ..... صفحة ١١٨
التأثر والتأثير في شعر الزهد ..... صفحة ١٢٨
معاني القرآن الكريم في شعر الزهد ..... صفحة ١٣٦
الخلاصة باللغة العربية ..... صفحة ١٤٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلاصة باللغة الإنجليزية ..... صفحة ١٤٦
الخاتمة ..... صفحة ١٤٨
المصادر والمراجع ..... صفحة ١٥٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit